من تراث العلامة النّدوي

إسمعيات

للعلاّمة الإمام السّيّد أبي الحسن علي الحسني النّدويّ

١٣٣٣ - ١٤٢٠هـ

إعداد وتعريف

سيّد عبد الماجد الغوري

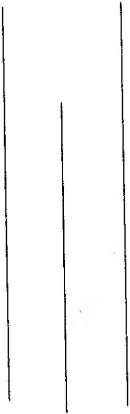
دار ابن كثير

دمشق - بيروت




بسم الله الرحمن الرحيم



إسمعيات

حقوق الطبع والتصوير محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م



للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي
ص.ب: ٣١١ - هاتف: ٢٢٢٥٨٧٧ - ٢٢٢٨٤٥٠ - فاكس: ٢٢٤٣٥٠٢
بيروت - برج أبي حيدر - خلف دبوس الأصلي - بناء الحديقة
ص.ب: ٦٣١٨ / ١١٣ - تلفاكس ٨١٧٨٥٧٠١ - ٠٣٢٠٤٤٥٩

مقدمة الكتاب

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، والرضا عن الصحابة والتابعين ، ومن سار على هديهم وسبيلهم .... وبعد :

فهذه مجموعة لطيفة من أحاديث وخطابات العلامة الإمام السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي ـ رحمه الله ـ التي وجَّهها إلى البلاد العربية ـ عن طريق إذاعاتها ـ خلال زياراته المختلفة لها ، وهي ، أولًا : في زيارته الثانية للحجاز عام ١٩٥١م بعنوان « بين العالم وجزيرة العرب » ، وفي زيارته الأولى لمصر عام ١٩٥١م بعنوان « اسمعي يا مصر » وفي زيارته لسورية عام ١٩٥٧م بعنوان « اسمعي يا سورية » ، وكذلك في زيارته للكويت عام ١٩٦٢م ، بعنوان « اسمعي يا زهرة الصحراء » وزيارته لإيران عام ١٩٧٣م بعنوان « اسمعي يا إيران » وكذلك أحاديث وخطابات أخرى ألقاها في زيارات مختلفة في فترات متقطعة .

فنالت جميع هذه الأحاديث قبولًا حسناً وتركت أثراً بالغاً عند المستمعين حيثما أُلقيت ، ونُشرت بعد ذلك في مجلَّات مختلفة في البلاد العربية وفي الهند ، وطُبعت كذلك في البلاد العربية في صورة رسائل صغيرة ، لكن كلها كانت منتشرة ومبعثرة يصعب الاطلاع والحصول عليها إذا أرادها أحد ، فلذا أحببتُ أن أجمعها في كتاب مستقلٍّ مع التعريف بجميع الأحاديث والخطابات ، فعكفت على هذا العمل أثناء زياراتي لدار العلوم ندوة العلماء وإقامتي عند العلامة الندوي ـ وهي قبل خمسة عشر يوماً من وفاته ـ رحمه الله ـ وبعدما فرغت من جمع هذه الأحاديث قدمتُ مجموعتها إلى العلامة ، فسرَّ بها وسَمَّاها بـ « اسمعيات » .

فكنتُ أتمنَّى أن أقدِّم إليه هذه المجموعة مطبوعة في وقت سريع ، لكن قضاء الله الذي لا رادَّ له كان أسرع ، فنسأل الله أن يرحمه ويتغمده بوسيع جناته ، وينفع بهذا الكتاب كلّ من قرأه .

إنه سميع مجيب ، وهو على كل شيء قدير .

كتبه
المعتز بالله تعالى
عبد الماجد الغوري

حيدرآباد ١٤/ شوال المكرم/ ١٤٢٠هـ

* * *

لمحة عن حياة
العلاّمة الإمام السيِّد أبي الحسن الندوي وشخصيته

اسمه ونسبه وأسرته :

• علي أبو الحسن بن عبد الحي بن فخر الدين الحسني ، ينتهي نسبه إلى عبد الله الأشتر بن محمد ذي النفس الزكية بن عبد الله المحض ، بن الحسن (المثنى) بن الإمام الحسن السبط الأكبر بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، أول من استوْطَنَ الهند من هذه الأسرة في أوائل القرن السابع الهجري هو الأمير السيّد قطب الدين المدني (٦٧٧هـ) .

• أبوه العلامة الطبيب السيّد عبد الحيّ الحسني الذي استحق بجدارة لقب « ابن خلكان الهند » لمؤلفه القيم « نزهة الخواطر » في ثماني مجلدات عن أعلام المسلمين في الهند وعمالقتهم ، طُبِعَ أخيراً باسم « الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام » .

• أمّه ـ رحمها الله ـ كانت من السيّدات الفاضلات ، المربيات النادرات ، المؤلّفات المعدودات ، والحافظات للقرآن الكريم ، تقرض الشعر ، وقد نظمت مجموعة من الأبيات في مدح رسول الله ﷺ .

ميلاده ونشأته :

• أبصرَ النورَ في ٦محرم ١٣٣٣هـ الموافق عام ١٩١٤م بقرية « تكية كلان » الواقعة قرب مديرية رائي بريلي في الولاية الشمالية (أترابرديش) .

• بدأَ دراسته الابتدائية من القرآن الكريم في البيت ، ثم دخل في الكُتَّاب حيث تعلّم مبادىء اللغتين (الأردوية والفارسية) .

• توفي أبوه عام ١٣٤١هـ (١٩٢٣م) وكان عمره يتراوح آنذاك بين

التاسعة والعاشرة ، فتولّى تربيته أمّه الفاضلة ، وأخوه الأكبر الدكتور عبد العلي الحسني الذي كان يدرس آنذاك في كلية الطب بعد تخرّجه من دار العلوم ديوبند الإسلامية ودار العلوم ندوة العلماء ، وإليه يرجع الفضل في توجيه وتربية العلامة الندوي .

• بدأ دراسة العربية على الشيخ خليل بن محمّد الأنصاري اليماني في أواخر عام ١٩٢٤م ، وتخرّج عليه مستفيداً في الأدب العربي ، ثمّ توسَّع فيه وتخصَّصَ على الأستاذ الدكتور تقي الدين الهلالي المراكشي عند مقدمه إلى ندوة العلماء عام ١٩٣٠م .

• التحق بجامعة لكهنؤ فرع الأدب العربي عام ١٩٢٧م ، ولم يتجاوز عمره آنذاك الأربعة عشر عاماً ، وكان أصغر طلبة الجامعة سناً ، ونال منها شهادة فاضل أدب في اللغة العربية وآدابها ، قرأ خلال أيام دراسته في الجامعة كتباً تعتبر في القمَّة في اللغة العربية والأردوية ، ممَّا أعانه على القيام بواجب الدعوة وشرح الفكرة الإسلامية الصحيحة ، وإقناع الطبقة المثقفة بالثقافة العصرية ، وتعلَّم الإنجليزية مما مكّنته من قراءة الكتب المؤلفة بها في التاريخ والأدب والفكر .

• التحق بدار العلوم ـ ندوة العلماء عام ١٩٢٩م وقرأ الحديث الشريف (صحيحي البخاري ومسلم وسنن أبي داود وسنن الترمذي) حرفاً حرفاً مع شيء من تفسير البيضاوي على العلاّمة المحدّث الشيخ حيدر حسن خان الطونكي ، ودرس التفسير لكامل القرآن الكريم على العلاّمة المفسر المشهور أحمد علي اللاّهوري في لاهور عام ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م ، وحضر دروس العلاّمة المجاهد حسين أحمد المدني في صحيح البخاري وسنن الترمذي خلال إقامته في دار العلوم ديوبند ، واستفاد منه في التفسير وعلوم القرآن أيضاً .

جهوده العلمية ونشاطاته الدعويّة :

• انخرَطَ في سلك التدريس من عام ١٩٣٤م ، وعُينَ أستاذاً في دار العلوم ندوة العلماء لمادتي التفسير والأدب ، وخلال تدريسه في دار العلوم ندوة العلماء استفاد من الصحف والمجلاّت العربية الصادرة في البلاد العربية ، ممّا عرفه على البلاد العربية وأحوالها ، وعلمائها وأدبائها ومفكريها عن كثب ، واستفاد أيضاً من كتب المعاصرين من الدعاة والمفكرين العرب وفضلاء الغرب والزعماء السياسيين .

• قام برحلة استطلاعية للمراكز الدينية في الهند عام ١٩٣٩م ، تعرَّف فيها على الشيخ المربّي العارف بالله عبد القادر الرأي فوري والداعية المصلح الكبير الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي ، وكان هذا التعرّف نقطة تحوّل في حياته ، وبقيَ على الصلة حتى وافاهما الأجل المحتوم ، وتلقَّى التربية الروحية من الشيخ عبد القادر الرأي فوري واستفاد من صحبته ومجالسته ، وتَأسّى بالشيخ محمّد إلياس الكاندهلوي في القيام بواجب الدّعوة وإصلاح المجتمع ، وقَضَى زمناً طويلاً في رحلات وجولات دعوية متتابعة للتربية والإصلاح والتوجيه الديني في الهند وخارجها .

• أسَّسَ مركزاً للتعليمات الإسلامية لتنظيم حلقات درس القرآن الكريم والسنة النبوية عام ١٩٤٣م ، وأسَّسَ حركة رسالة الإنسانية بين المسلمين والهندوس عام ١٩٥١م ، والمجمع الإسلامي العلمي بدار العلوم ـ ندوة العلماء في لكهنؤ عام ١٩٥٩م .

• عُيِّنَ أميناً عاماً لدارالعلوم ندوة العلماء عام ١٩٦١م .

• شارك في تأسيس هيئة التعليم الديني للولاية الشمالية (أترابرديش) عام ١٩٦٠م ، وفي تأسيس المجلس الاستشاري الإسلامي لعموم الهند عام ١٩٦٤م ، وفي تأسيس هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند عام ١٩٧٢م .

أهم مؤلفاته :

• نشرَ له أول مقال بالعربية في مجلّة « المنار » للعلاّمة السيِّد رشيد رضا المصري عام ١٩٣١م حول شخصية الإمام السيّد أحمد بن عرفان الشهيد وكان عمره ـ آنذاك ـ أربعة عشر عاماً .

• ظهَرَ له أوّل كتاب بالأردوية عام ١٩٣٧ يحمل اسم « سيرة أحمد شهيد » ونالَ قبولاً عاماً في الأوساط الدينية والعلمية في الهند وباكستان .

• بدأ سلسلة تأليف الكتب المدرسية بالعربية ، وظَهَر أوّل كتاب فيها بعنوان « مختارات من أدب العرب » عام ١٩٤٠ ، و« قصص النبيين » للأطفال و« القراءة الراشدة » عام ١٩٤٤م . وقررت جميع هذه الكتب في مقرّرات جامعات البلدان العربية والهندية .

• ألّف كتابه المشهور « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » عام ١٩٤٤م .

• دعيَ أستاذاً زائراً في كلية الشريعة جامعة دمشق عام ١٩٥٦م ، وألقى محاضرات بعنوان « التجديد والمجدّدون في تاريخ الفكر الإسلامي » نُشرت بعد ذلك في شكل كتاب مستقلّ ينضوي تحت أربع مجلدات باسم « رجال الفكر والدعوة في الإسلام » .

• ألَّفَ كتابه حول القاديانية بعنوان « القادياني والقاديانية » عام ١٩٥٨م ، وكتابه « الصراع بين الفكرة الإسلامية والغربية في الأقطار الإسلامية » عام ١٩٦٥م وكتابه « الأركان الأربعة » عام ١٩٦٧م ، و« السيرة النبوية » عام ١٩٧٦م ، و« العقيدة والعبادة والسلوك » عام ١٩٨٠م و « المرتضى » في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عام ١٩٨٨م .

• شارك في تحرير مجلة « الضياء » العربية الصادرة من دار العلوم ـ ندوة العلماء عام ١٩٣٢م ومجلّة « الندوة » الأردوية الصادرة منها أيضاً عام ١٩٤٠م ، وأصْدَرَ مجلّة باسم « تعمير حيات » في الأردوية عام

١٩٤٨م ، وكَتَب مقالات في الأدب والدعوة والفكر في أمّات المجلّات العربية الصادرة من مصر ودمشق كـ : « الرّسالة » للأستاذ أحمد حسن الزيات و « الفتح » للأستاذ محب الدين الخطيب و « حضارة الإسلام » للدكتور مصطفى السباعي و « المسلمون » للدكتور سعيد رمضان المصري .

• أشْرَفَ على إصدار جريدة « نداي ملّت » الأردوية عام ١٩٦٢م ، وكذلك أشرف على مجلّة « البعث الإسلامي » العربية الصادرة منذ عام ١٩٥٥م وجريدة « الرائد » العربية الصادرة منذ عام ١٩٥٩م ومجلة « تعمير حيات » الأردوية الصادرة منذ عام ١٩٦٣م ، وكلها تصدر من دار العلوم ـ ندوة العلماء في لكهنؤ ، (الهند) .

رحلاته :

• سافرَ إلى الشرق والغرب مرات داعيةً إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، عاملاً على إعلاء كلمة الإسلام بالكلمة المسموعة والمقروءة وبالعمل الإيجابيّ البنّاء في كل مجال ، جوّاباً للآفاق في سبيل الله ، محاضراً ، ومحدثاً ، ومحاوراً ، وواعظاً وهادياً ، ومشاركاً بالرأي والفكر في المجالس العلمية ، والمجامع الجامعية والمؤسسات الإسلامية ، والمؤتمرات والندوات فيها[١] .

تقدير وتكريم :

• انتخبه مجمع اللغة العربية بدمشق والقاهرة والأردن عضواً مراسلاً لما اتصف به من العلم الجمّ ، والبحث الدقيق في ميادين الثقافة العربية والإسلامية ، ولمساعيه المكثفة المشكورة في سبيلها .

---

(١) انظر للاطلاع على رحلاته كتاب « رحلات العلامة أبي الحسن علي الحسني الندوي » جمع وترتيب وتعليق مؤلف هذا الكتاب ، صدر عن دار ابن كثير دمشق ـ بيروت عام ٢٠٠٠م .

• اختير عضواً في المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة منذ تأسيسها عام ١٩٦٢م .

• اختير عضواً في رابطة الجامعات الإسلامية منذ تأسيسها عام ١٩٧١م .

• اختير لاستلام جائزة الملك فيصل العالمية عام ١٩٨٠م ، لمؤلَّفه القيم « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » .

• منح شهادة الدكتوراه الفخرية في الآداب من جامعة كشمير عام ١٩٨١م .

• اختير رئيساً لمركز أكسفورد للدراسات الإسلامية بلندن عام ١٩٨٣م .

• اختير عضواً في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية وللبحث والتأليف والتحقيق في عمّان (الأردن) .

• اختير رئيساً عاماً لرابطة الأدب الإسلامي العالمية (الرياض) عام ١٩٨٤م .

• أقيمت ندوة أدبية كبيرة حول حياته وجهوده الحثيثة ومساعيه المشكورة ، ومفاخره العظيمة في مجال الدعوة والأدب عام ١٩٩٩ في إستانبول « تركيا » .

• اختير لاستلام جائزة الشخصية الإسلامية لعام ١٤١٩هـ لخدماته الجليلة ومآثره العظيمة في مجال الدعوة الإسلامية ، وقدَّم إليه الجائزة ولي العهد لحكومة الإمارات العربية المتحدة سمو الشيخ محمد بن راشد المكتوم .

رئاسته وعضويته للجامعات والمجامع :

• تولّى العلامة الرئاسة والعضوية لعدة جامعات إسلامية ومجامع عربية

ومنظمات دعوية ومراكز دينية في العالم الإسلامي وخارجه ، ومنها على سبيل المثال :

الأمين العام لدار العلوم ـ ندوة العلماء (التي أخذت صفة العالمية منذ ترأس أمانتها ، وتفوَّقتْ على معظم جامعات العالم التي تَهْتم بشؤون الدراسات الإسلامية والعربية لأنَّها تجمع بين القديم الصالح والجديد النافع) .

رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية (الرياض) .

رئيس المجمع الإسلامي العلمي في لكهنؤ (الهند) .

رئيس مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية (إنجلترا) .

رئيس هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند .

رئيس هيئة التعليم الديني للولاية الشمالية (أترابرديش) .

عضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة .

عضو المجلس التأسيسي الأعلى العالمي للدعوة الإسلامية بالقاهرة .

عضو مجمع اللغة العربية بدمشق .

عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

عضو مجمع اللغة العربية الأردني .

عضو المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت) بالأردن .

عضو رابطة الجامعات الإسلامية بالرباط .

عضو المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .

عضو المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد (باكستان) .

عضو المجلس الاستشاري بدار العلوم ديوبند الإسلامية (الهند) .

• وعدا ذلك تولّى العلاَّمة الرئاسة والعضوية لكثير من الجامعات الإسلامية ، والمراكز الدينية والمنظمات الدعوية ولجان التعليم والتربية في العالم الإسلامي وخارجه .

وفاته :

كان ـ العلامة الندوي ـ في حالة صحية جيدة قبل يومين من وفاته ، قضى عشرين يوماً من رمضان المبارك في مقره بدار العلوم ـ ندوة العلماء برفقة من أصحابه وزوّاره الذين يصومون معه في كل عام ، ولكنه في العشرين من الشهر غادر لكهنؤ إلى مسقط رأسه « تكية كلان » (الواقعة في مديرية « رأي بريلي ») ، لكي يقضي هناك العشرة الأخيرة مع أفراد عائلته ، ولما كان يوم الجمعة (وهي جمعة الوداع في العالم الإسلامي كله) تهيأ لصلاة الجمعة ، واستحمَّ ، وغيَّر الملابس ، وتطيَّب (وكان في ذلك كله في غاية الاهتمام) فبدأ يتلو سورة الكهف قبل أن يقصد إلى المسجد إذ فاجأته نوبة قلبية ، توقف معها القلب وطارت الروح إلى بارئها ، وانضمَّ ـ رحمه الله ـ إلى صفوف أولئك الرجال من المؤمنين الذين أشاد الله بذكرهم في تنزيله ، فقال : ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٢٣] .

رحمه الله رحمة واسعة ، وغفر له مغفرة شاملة[١] .

* * *

(١) انظر كتاب المؤلِّف « أبو الحسن علي الحسني الندوي الإمام المفكر الداعية الأديب » للاطلاع على سيرة حياة سماحة الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي ، وجهوده الحثيثة في خدمة الدعوة الإسلامية ، ومآثره القيمة في مجال الأدب ، ومواقفه من القضايا الإسلامية والعربية ، وتعريف لأهمّ مؤلّفاته ، صدَر عن دار ابن كثير دمشق ـ بيروت عام ١٩٩٩م .

اسمعي يا جزيرة العرب

[خلال زيارة العلامة الندوي الثانية للحجاز عام ١٩٥٠م رغب إليه بعض كبار علماء الحجاز في إلقاء سلسلة من الأحاديث بالإذاعة السعودية ، فقبل العلامة رغبتهم هذه ، واختار لها بعد روية وتفكير عنوان : « بين العالم وجزيرة العرب » الذي كان يتوقع العلامة أنه سوف يبدي فيه آراءه وانطباعاته بأسلوب مناسب ، ويعبِّر عما في قلبه وضميره على لسان العالم ، ثم يردّ عليه بلسان جزيرة العرب ، فكان عنوان حديثه الأول « من العالم إلى جزيرة العرب » الّذي يفتح فيه العالم الإنساني ـ بعد أداء حقوق الشكر والتقدير على تلك المنن والهدايا الكريمة التي قدمتها إليه جزيرة العرب على طريق سيدنا محمد ﷺ ، والتي أعادت الحياة من جديد ـ صفحات الشكوى ويعرض جروح قلبه وفزع نفسه على أنه لماذا تخلت الجزيرة العربية (التي كانت قد طلعت من أفقها الوضاء شمس الإسلام الساطعة) عن قيادته وإمامته ، وخاطبها العلامة في صراحة ووضوح قائلاً : إننا لَسْنا في حاجة إلى زيتك الّذي تسير به العجلات والماكينات ، إننا في حاجة إلى ذلك الإيمان وتلك الحرارة والنور الذي اختصك الله به ، وتستضيء به العقول وتستنير به القلوب ، ثم ردَّ العلامة على العالم من جزيرة العرب ردّاً فيه اعتراف بالقصور ، واعتذار ومواعيد ، وإليك هذا الحديث المستفيض] .

من العالم إلى جزيرة العرب

فرصة سعيدة يا جزيرة العرب ، لي معك اليوم حديث خطير قد خبأته لك من زمان وصرفتني عنه خطوب ونوائب شغلت خاطري إلا أن هذا الحديث قد ملك اليوم قلبي وثقل على نفسي فلم أر اليوم بداً من أن أفضي به إليك ؛ وأتنفس مما أجده من الضيق والألم .

زهّدني في هذا الحديث ما كنت أراه من انسحابك من الحياة وتنزلك عن القيادة التي تبوأتها زمناً غير يسير ، وما كنت أراه من رغبتك في العزلة عن العالم وما يقع فيه من حوادث ، وما يتجدد فيه من شؤون ، وكرهت أن أزعجكِ وأقلق بالكِ وقلت : لقد رقدت الجزيرة بعد سهر طويل سهرته في مصلحتي ، واستراحت بعد عناء كبير تحملته في سبيلي فلا ينبغي لي أن أوقظها وأقض مضجعها ، ولكن الخطب كان أجل من ذلك وأعظم ، ولم أر مفزعاً بعد الله إلَّا إليك وقلت : لقد وجدت في هذه الجزيرة غوثاً ونجدة قبل ثلاثة عشر قرناً ، وقد أحيط بي يومئذ ، فعسى أن أجد فيها فرجاً وروحاً مرة ثانية .

أراك أيتها الجزيرة العزيزة تنظرين إلى نفسي نظرة الحياء ، وتلقين على نفسك نظرة الازدراء ، تنظرين إلى تقدمي في الصناعة والاختراع ، وإلى تسخير الإنسان للبخار والكهرباء ، وتسخير الطاقة الذرية في الزمن الأخير ، وتقولين في شيء من الخجل والاعتراف ، وفي شيء من الجراءة والشجاعة : لقد تقدم العالم بعدما خرج من حضانتي تقدماً مطرداً وقطع أشواطاً بعيدة في العلم والمدنية ، هوني عليك أيتها الجزيرة فإن هذا الإنسان الطائر في الهواء ، العابث بأمواج الأثير لا يزال طفلاً صغيراً في أخلاقه وفي شعوره الاجتماعي ، وفي عناده وقصور نظره وأثرته ، وإيثاره

الصور والأشكال على الحقائق والمعاني وافتتانه بالمهازل والملاهي ، فلو علمت أيتها الجزيرة ما وراء الأكمة لهان عليك الخطب ، وعلمت أن الإنسانية لا تزال حيث خلفتها ، وأن الإنسان وإن أصبح يطير في الهواء كالطير ، ويسبح في البحار كالسمك ، فإنه لا يحسن أن يمشي على الأرض كإنسان .

أراك أيتها الجزيرة تنظرين بدهشة واستغراب إلى معاهدي العامرة وإلى مكتباتي الزاخرة ، ومطابعي المتدفقة ، وحركة التأليف والنشر القوية ، وإلى هذا الأدب الخصيب الذي يطلع كل يوم بشيء جديد ولكن لا تعجلي ، إن روح هذه الحركة التجارة والاستغلال ، وإن كثيراً من حملة الأقلام يتاجرون بأخلاق الناس وضمائرهم ، ويحبون أن تشيع الفاحشة في المجتمع وتروج بضاعة الخلاعة والاستهتار ، ولا تستغربي إذا حدثتك أن كبار المثقفين والأدباء عندي لا يفضلون في الأخلاق والصبر على مكاره الحياة والعزوف عن الشهوات وإنكار الذات على الأعراب الذين يضرب بهم المثل في الجفاء والجهل والأمية .

أراك أيتها الجزيرة تصغين إلى الكلمات الرنانة التي تلوكها ألسنة السياسيين ، وترددها أقلام الصحفيين كالعدالة الاجتماعية والمساواة والحرية والجمهورية ، كأنك تسمعين كلمات لها معنى وتطبيق في الحياة كما حدثت من قبل بكلمات صادقة يوم كان اللفظ دليلاً على معنى ويوم كان الإنسان يرى نفسه مأخوذاً بقوله . . . هيهات لقد تقدم الزمان وأصبح كثير من الكلمات لا يقصد بها معنى ولا تراد بها حقيقة ، فرحم الله من اعتمد على الكلمات ورحم الله من صدَّق أهلها فيما يقولون .

أراك أيتها الجزيرة تنظرين إليَّ فتغبطينني على ما تعتقدين عندي من صفاء وسرور وراحة ونعيم وهدوء وسلام ، لقد استسمنت يا هذه ذا ورم ، أنا جسم قد علتني أورام غير طبيعية فظنني الجاهل صحيحاً سليماً مع أني مريض دنف أشكو في كل عضو من أعضائي أوجاعاً وأوصاباً ، أشكو في

قلبي وجعاً وفي رأسي صداعاً وفي عيني رمداً وفي دمي نزفاً وفي نفسي اختلالًا ، تارة أصاب بطوى وجوع تكاد تزهق له نفسي ، وأخرى ببطنة وتخمة تكاد تقضي عليَّ وتقتلني وقد اجتمع حولي متطببون ومشعوذون يعالجونني بالأمراض ويداوون الداء بالداء ، وبعمليات جراحية خرقاء ، لقد قتلوني قتلهم الله ، عالجوا مشاكل الاقتصاد بحركة منع الولادة ، وسوء التصرف في المال بتحريم الملك الشخصي ، واستبداد الأشخاص باستبداد الأحزاب واحتكار الأفراد باحتكار الشركات . . . والرأسمالية الجائرة بالاشتراكية المرهقة ، والاشتراكية العمياء بالجمهورية العوراء ، لقد داووا جوراً بجور وظلماً بظلم وإسرافاً بإسراف وجهلاً بجهل وعلة بعلة ، فزادوني مرضاً على مرض وضعفاً على ضعف .

إليك جئت أيتها الجزيرة العربية بما معي من أدواء وأوجاع وقد فضحت أمامك نفسي وكشفت سري فهل تغيثينني وتسعفينني كما أغثتني بالأمس وأنقذتني من الموت الأحمر ، فلست اليوم بأقل حاجة إلى إسعافك وإنجادك من يوم بعث رسولك وأشرق عليَّ نورك !!

لا تغرنك أيتها الجزيرة مني مظاهر المدنية الجوفاء وهذه الطائرات المحلقة في الهواء وهذه الناطحات للسماء ، وهذه الآلات التي ملأ صوتها الفضاء ، فيسهل علي أن أتخلى من كل هذا ومن كل كنوزي وأتنازل عن كل ما تنظرين إليه نظر الغبطة والطمع وأستبدل بها ما قد فقدته من الإيمان الذي جاءت به الأنبياء والرسل ، والذي فقدت معه قوتي وحرارتي وشخصيتي وروحي ، وأصبحت جسداً ميتاً قد يطفو على الماء وقد يحمله الهواء .

نفسي فداؤك يا جزيرة العرب خذي مني ما شئت من سيارات وقطر وطائرات وماكينات وآلات وزخارف وأدوات ، وتصدقي علي بهذا الإيمان الذي لا أجده في أسواقي ولا تنتجه مصانعي على كثرة ما تنتج وعلى غرابة ما يخرج منها ، ولم أكتسبه من مكتبتي الواسعة ، ولا يفيدني إياه فلاسفتي ومفكريَّ وكتَّابي وزعمائي إنما أفاده العالم « أمي » لا يزال في أحضانك ،

فعاش هذا العالم بعدما كان ميتاً وأبصر بعدما كان أعمى ، وتماسك بعدما كان متزعزعاً ولم يصب أحداً شيء من هذا الإيمان إلا عن طريق هذا النبي الأمي ولن يصيب أحداً إلى آخر الأبد إلّا عن طريقه ، لذلك جئتك سائلاً فلا تنهريني ولا ترديني خائباً !

أنا أيتها الجزيرة حائر تائه قد تكدست عندي آلات وأدوات ووسائل ما عرفت كيف أصنع بها وكيف أستعملها ، فإني إلى الآن لم أعرف ما غاية هذه الحياة وما نهايتها ومن خالق هذا الكون ولأي شيء خلقه وما مركز هذا العالم وما روح هذه الحياة ؟! وما هذه الآلات والمصنوعات بل ما هذه القوى المودعة في هذا الكون وهذه الخيرات المنبثة على الأرض إلّا كسراً من كسور هذا العالم الكبير ، فمن كان حائراً تائهاً في هذا المجموع الكبير كان خليقاً بأن يكون حائراً تائهاً في كسوره خابطاً في استعمالها ، قد يستعملها في خير وقد يستعملها في شر ، وطالما يستعملها بلا غاية ، والغايات لا طريق إلى معرفتها إلّا الأنبياء والمرسلون ، أما المكتشفون والصناع فإنما موضوعهم الآلات والصناعات ، ولما تفردت بالوحي تفردت بالغايات ولما عنيت بالصناعة والاكتشاف تفردت بالآلات والمصنوعات وبانفصالنا شقيت الإنسانية فهلمي يا مهد الإيمان ويا مهبط الوحي نتعاون على سعادة الإنسانية وصالحها فأنجدي العلم والصناعة بالغايات والروح والإيمان ، وأنجدي الدين بالآلات والوسائل ، حتى تسير الإنسانية رشيدة الغاية سديدة الخطى ، على جناح السرعة والقوة ، فبك تستفيد صلاح الغاية وصحتها ، وبي تستفيد سرعة الوصول إلى هذه الغاية الرشيدة .

جودي عليَّ أيتها الجزيرة بنفحة من نفحات محمد ﷺ أحلُّ بها مشاكل حياتي وألغاز مجتمعي ، وأحيي بها موات قلبي وأطفىء بها جحيم المادة التي أحاطت نيرانها بهذه المدنية وبكل فضيلة إنسانية ، وقد هبت نفحة منك في القرن الإسلامي الأول فحولت هذا العالم الفسيح من جحيم إلى نعيم ، وقد استدار الزمان كهيئته يوم بعث الله نبيه ، فعودي على هذا العصر بنفحة

جديدة تنفخ فيه روحاً جديدة وتبعث هذا العالم بعثاً جديداً !

إنك تجودين علي أيتها الجزيرة العربية بمقدار عظيم من البترول أدير به ماكيناتي وأسير به عجلاتي ، فأنا أدين لك بالفضل وأشكر صنيعك ولكني كنت أنتظر منك ـ أيتها الجزيرة السعيدة يا مولد نبي الرحمة ـ شيئاً أعز وأثمن من الذهب الأسود ، كنت أنتظر منك أن تخرجي لي عجلة الحياة التي غاصت في الوحل ، وأن توجهيها التوجيه الصحيح وأن تخلِّصي ركَّابها من هذا المأزق ، فقد عجزت حكمة الحكماء وصناعة الصناع من إخراجها فأخرجيها بما معك من حكمة النبوة وبقية قوة الرسالة والإيمان واليقين ، وسيِّريها بنور الشريعة الإلهية والهداية الإسلامية !

وفي الأخير أقول : إنك يا جزيرة العرب قطعة مني يصيبك خيري وشري ويصيبك لفحي ونفحي ، ما يمكنك أن تعيشي منعزلة عني فإن أدركتني وأصلحت شؤوني فإلى نفسك أحسنت ، وإلَّا ، فعليك وعلى أهلك جنيت !.

* * *

من الجزيرة العربية إلى العالم

مساء الخير أيها العالم ، لقد سمعت كلمتك الرقيقة التي تنم عن إخلاص وصدق وحب ، وقد خاطبت يوم خاطبتني جزءاً منك وعضواً حياً من أعضائك يشعر بشعورك ويتألم بألمك ويشاركك في السراء والضراء وفي الشدة والرخاء .

لقد ذكرتني بذكرك القيادة العالمية عهداً كلما تذكرته تحركت أحزاني وهاجت شجوني ، لقد كنت كما تعرف جزيرة منعزلة عن العالم لا أسترعي نظراً ولا أشغل بالاً ولا ترفع برجالي رأساً ولا تعيرهم شيئاً من العناية ، يقول رجالك المتمدنون إذا سئلوا عنهم : أعراب من جزيرة العرب رعاة إبل وسكان وبر وأصحاب فصاحة ، لا يعرفون الحضارة والمدنية والعلوم ، بينما بلغت المدنية أوجها في بلادك الرومية والفارسية ، وبينما كنت تزخر بالبضائع والأبنية الشامخة والعلوم والحرف .

ولكن - من غير مؤاخذة - لقد انطفأت شعلة الحياة في جسمك ، وفقدت حرارتك الغريزية وقد ضاعت رسالة الأنبياء في ترف الأغنياء وبؤس الفقراء وجور الأمراء ومطالب الحياة وتكاليفها التي لم تترك فراغاً في القلب ، وسعة في الوقت ، وبقية في الصبر ، حتى أصبحتَ لا يوجد في إقليم واسع منكَ من يفكر في الآخرة ويهتم بدينه وغاية حياته ، وقلما يوجد في قطر من يعبد ربه .

وقد كنت في غير تواضع مصاباً بأدواء خلقية واجتماعية ودينية ، وبما تزري بأدوائك وعيوبك الاجتماعية ، ولكن كانت لا تزال فيَّ جمرة من الحياة ، صبر على المكاره ، وثبات على المبدأ واستماتة في سبيل العقيدة ، واستهانة بالحياة والمادة ، وبساطة المعيشة إلى غير ذلك مما يليق بأمة نيط بها جهاد طويل عريض .

نظر الله إليك وهو العليم الحليم الخبير ، فرأى كل ما يرضي السائحين ويسر المتفرجين من زهو المدنية ، ولا يرضي الذي خلق العالم لغاية ، وخلق الخلق لعبادته ، ونظر إلى أمم الأرض ، فعمد إلى أحطها معيشة ، وأخملها ذكراً ، وأقواها على حمل الأمانة ، فاختارها لرسالته ، وابتعثها إلى هذا العالم المنهار .

أرسل إليَّ رسولًا ولدته أم القرى وعاش في أحضاني بين سمعي وبصري ، فإذا هو قرة عين الإنسانية وجمال الدنيا ، وعلى جبل من جبالي في يوم لم أعرف خطره أكرمه بالرسالة وبعثه إليَّ ليكون للعالمين نذيراً ، واختار له رجالًا أنجبتهم ولكن لم ألق لهم بالًا ولم أحسب لهم حساباً ، ولكنهم أثبتوا قيمتهم وكفايتهم ، أبر الناس قلوباً ، وأعمقهم علماً ، وأقلهم تكلُّفاً ، وأعلاهم همة ، وأثبتهم جناناً ، وأقواهم إيماناً ، يا لهم من عباد ليل وأحلاس خيل .

هنالك نهضت بروح غير الروح ، وبقوة غير القوة ، هي روح الرسالة وهي قوة الإيمان ، وفاجأتك بحماسة وسرعة لا عهد لك بهما ، فإنه لا عهد لك من قديم الزمان بالإيمان بقوته ، فنظرت إليَّ شزراً وظننتني من الغزاة الطامعين والملوك الطامحين ، وظننت أني خرجت لمصلحتي ، ودافعي الجوع والفقر وقلة الموارد ، فعرضت علي ما يشبع جوعة الزاحفين ويرضي الملوك الطامعين فإذا الأمر بالضد وليس الدافع إلا الشفقة عليك والحرص على إنقاذك من داهية الوثنية وشرور المدنية ، فوقفت في سبيلي من غير جدوى وقاومتني من غير نتيجة ، فلم تزل قوتك المادية تتحلل وتذوب أمام حرارة الإيمان وقوة الروح حتى وضعت أوزارك واستسلمت للقضاء الواقع ، ولما زالت عنك دهشة الفتح أقبلت على رسالتي تدرسها وتتفهمها ، فإذا خير الدنيا والآخرة ، وإذا هي رسالة السلام والعلم والعقل وإذا هي أساس المدنية ومعراج الإنسانية ، فآمنت بها بلاد ودانت بها أمم ، فأحلت لها الطيبات وحرمت عليها الخبائث ووضعت عنها إصرها والأغلال

التي كانت ، ومنحتها الإمامة في العلم والدين ، والسيادة في الحكم والسياسة .

وهنالك ـ لا أخفي عليك ـ وقعت كارثتي ، بل كارثة العالم فقد ألهتني هذه الفتوح الواسعة والغنائم الزاخرة ، والكنوز العظيمة والمدنية الباهرة ، التي لم يكن لي بها عهد ، فأطفأت شعلتي وأخمدت حماستي وبردت روحي ، وابتلعت إيماني ووقع لرجالي ما أخبر به نبيهم ﷺ : « ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخاف أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتهلككم كما أهلكتهم » فأصبح رجالي غير الرجال أجسام كأجسامهم الأولى بل هي أروع ، وملابس كملابسهم السابقة بل هي أفخر ، ووجوه كوجوههم بل هي أشد نضارة وطراوة ، ولكن أرواح باردة ونفوس خامدة وقلوب خاوية : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ [المنافقون : ٤] .

هنالك اعتراني كسلٌ وفتورٌ وإعياءٌ ، ورأيت الاعتزال عن معترك الحياة فإني لا أطيقه فرجعت أدراجي وانطويت على نفسي ، لقد كان اعتزالي عن الحياة رزيئة إنسانية عامة وكارثة عالمية عظمى ، فقد بقيت الأمم قطعاناً من الغنم لا راعي لها ، وبقيت القافلة وقد جد بها السير وغاب عنها الخرِّيت .

هنالك خبطت الأمم في مدنيتها وعلومها وصنائعها وسياستها ، وهنا كانت مصيبتك فقد اكتشف لك المكتشفون وعلماء الطبيعة القوى الهائلة والوسائل الجبارة ، وسخروا لك البخار والكهرباء والماء والهواء ، وكرَّسوا لكَ العلوم والحكم ، ولكن استخفُّوا بالروح وهزؤوا بالإيمان ، وأهملوا تربية الأخلاق فأصبح تقدمك معوجاً وجاءت نهضتك الأخيرة نهضة هوجاء خرقاء ، وكنت كشجرة برية تمتد فروعها وتطول على غير نظام وعلى غير نسق فهذا ذاهب إلى اليمين وذاك إلى الشمال وهذا وجد متسعاً فطال وهذا تضايق فقصر ، أو كولد ينشأ في مغارة دب أو جحر ذئب يجمع بين حدة الأظفار وقوة الساعد ، وشراسة الأخلاق وصغر العقل .

لأجل ذلك وقع ما تشكو منه من تضخم الآلات واضمحلال الغايات ، وسوء التصرف في القوة والخبط في العلم ، وفساد أخلاق المثقفين ، ونهامة الأدباء والمؤلفين، وكذب الصحفيين ، وتزوير الزعماء والسياسيين، وخرق الأطباء والمعالجين ، وما تشكو منه من علة الروح واضطراب القلب وانزعاج النفس ، فإن هذا كله ـ سامحني أيها العالم ـ من لوازم حضارتك وعقليتك التي خلعت ربقة الدين واستغنت عن هدي الأنبياء والمرسلين وأسست حياتها على القياس والتخمين ، وعبادة المادة والقوة والشهوات .

« لو رأى أحد حضارتك في تكوينها لتنبأ بمثل هذه النتائج ، وأنذر منها كما يرى الإنسان بذرة فيتنبأ بثمرتها ، لقد سرتني شجاعتك أيها العالم باعترافك بالإفلاس في الإيمان وأن مصانعك لا تنتجه ، وأنه لا يوجد في أسواقك ولا عند علمائك ، وأن مصدره هو الرسول الأعظم الذي يستنكف من اتباعه فلاسفتك وحكماؤك وأكثر منهم قادتك وزعماؤك ، فلا تستحي أيها العالم المتنور واحرص على هذا الإيمان وكن جاداً في طلبه مهما كلفك من التواضع والتعب ، فإنك بدونه جسد بلا روح وبيت بلا نور .

لا تعرض عليَّ مصنوعاتك من سيارات وزخارف وأدوات فقد أخذت منها الكفاية وفوق الكفاية ، بل أريد أن أشكو إليك أن سياراتك قطعت خيلي العتاق التي كان يضرب بها المثل في الخفة والأمانة والوفاء والغَنَاء في الحرب ، وقد أغرقتني زخارفك ومصنوعاتك بالبذخ والتبذير والراحة والكسل والاتكال على الآلات ، فضعفت الأجسام ووهنت القوى وتعطلت أيد عاملة وانصبت دماء أجسامنا في أجسام غيرنا ، فاسترد مني فضول مدنيتك لعلي أستعيد بعض قوتي ونشاطي وأخلاقي التي كنت فيها مضرب المثل .

لقد أعيتك أيها العالم معضلات مدنيتك وألغاز مجتمعك وإنها لتتحدى تشريع المشرعين وجهود المصلحين فتعجزها ، فاطرح عنك أيها العالم الكبر والحياء وأقبل على هذا الكتاب الخالد الذي جاء به محمد ﷺ واستفته

وارجع إليه فيما ينوبك من الحيرة والعجز ، وادرسه ككتاب لا عهد لك به من قبل وقد نزل اليوم ليرشدك ويأخذ بيدك ، وانظر كيف يحل لك عقدة بعد عقدة ومعضلة بعد معضلة من حياة الفرد إلى حياة المجتمع ، وفي السياسة والاقتصاد وفي المدنية والأخلاق ، ويمنحك مبادىء ودعائم تؤسس عليها المدنية الصالحة وتجمع بها بين سعادة الدنيا والآخرة إن هذا الكتاب المعجز يخاطب اليوم فلاسفتك وزعماءك بما خاطب به القرن السادس المسيحي :

﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة : ١٥ ـ ١٦] .

غلبتك المادة أيها العالم فجئتني لا ترغب إلا في ما أحتوي عليه من كنوز الثروة والقوة ولا يهمك إلا ما يجري في بطني من عيون البترول فأعطيتك سؤلك وأشبعت نهمتك ، وإنما يعطى السائل على قدر همته وقد جئتني اليوم تسأل أعز ما عندي وأنفع للإنسانية ، تسألني الإرشاد والتوجيه فأهلاً بك وسهلاً أيها الزائر الكريم ودونك المنهل العذب الصافي من الدين السماوي ومن الوحي المحمدي الذي احتفظت به طول هذه المدة فارتو منه ما شئت واستق منه الإيمان واليقين ومبادىء الحياة السعيدة والعلم الصحيح والعمل الصالح والخلق المستقيم والاتجاه الصحيح في كل عمل وحركة وفي كل دقيقة وجليلة ، ذلك الاتجاه الذي لا يكون إلّا بالإيمان بالله وبرسله واليوم الآخر والحساب والعقاب ، تشرب هذه المبادىء من هذا المعين الصافي واستمد منه الحياة والقوة والشباب والرسالة ، وأطلع عالماً فتياً مشرقاً يخلف العالم الشائب المظلم العليل الذي قد فقد الروح والحياة والشباب ، وأصبح لا يحمل رسالة للإنسانية .

❊ ❊ ❊

اسمعي يا مصر

[أراد العلاّمة الندوي أثناء زيارته لمصر عام ١٩٥١م أن يخاطب مصر خطاباً يذكِّرها برسالتها ودورها ومكانتها ، ويشعرها بأنها تستطيع أن تقوم بالدور القيادي والتوجيهي للعالم العربي بل للعالم الإسلامي كله ، فماذا تأخذ من الغرب وتعطيه بعد الفحص والاختبار للعالم العربي ؟ وماذا عليها في مقابل ذلك أن تعطيه للغرب حتى يجد الغرب طريقاً جديداً للحياة ، ويخرج من المستنقع الّذي لا يزال يتورط فيه ، على مصر أن تقضي في ذلك وتصدر حكماً فاصلاً ، وليس ذلك إلا لمصر وحدها التي تقع على نقطة الاتصال بين الشرق والغرب حيث تلتقي حضارتان وتجتمعان ، ثم إن مصر في حاجة إلى قناة معنوية فكرية تكون واسطة التبادل الحرِّ بين الشرق والغرب على قدم المساواة والثقة بالنفس ، فينبغي أن تقدم مصر أنفس وأغلى أشياءها ـ وهي رسالة الإسلام ـ إلى الغرب ، وتأخذ من الغرب ما تفوق فيه وسبق ، وهي التكنولوجيا الحديثة والعلوم والصناعات الجديدة . فبدأ العلامةُ لأجل هذا الغرض يكتب مقالًا شعر فيه بورود المعاني وانثيالها ما لم يشعر به إلّا قليلاً ، أشاد فيه أولًا ـ برحابة صدر وسخاء ـ بدور مصر الديني والعلمي والقيادي الرائع ، ومآثرها العظيمة في النشر والتوزيع ، وفتوحه الأدبية والعلمية ، وتاريخ الأزهر الزاهر ، ومآثرها في خدمة العلم والدين ، ثم صارحها ، فقال :]

أحيِّيك يا مصر بتحية الإسلام ، وأحيِّي فيك الزعامة للعالم العربي ، الزعامة التي كانت عن جدارة واستحقاق ، لا عن احتكار واغتصاب ، وإنكِ تحلِّين اليوم في العالم العربي محل السمع والبصر ، ومحل العقل والفكر ، رضي به الناس أم لم يرضوا ، ولكن الواقع لا ينكر .

أحيِّي فيك يا مصر نَفَاق سوق العلم ، ورَواجَ بضاعة الأدب ، وتقدير رجال العلم والفن ، فقد أنجبتِهم واحتضنِتهم ودافعتِ عنهم ، وحدبتِ عليهم ، فهم أبناؤك البررة وأنت الأم الحنون .

أحيِّي فيك الأزهر الشريف الذي كان ولا يزال المنهل المورود في الدين والعلم للعالم الإسلامي ، والذي لا يضارعه ولا يزاحمه في تقدُّم السن وطول العمر وامتداد الظل وكثرة الإنتاج معهد أو جامعة على وجه الأرض .

أحيِّي فيك المكتبة العربية التي فاضت وامتدت كالنيل وأصدرت كتباً ومطبوعات عربية لو وضع بعضها فوق بعض لكانت مثل الأهرام أو أرفع .

أحيِّي فيكِ غيرتكِ على اللغة العربية ، وجهادكِ في إحيائها ونشرها ، ورفع شأنها وتوسيعها ، حتى أصبحت بجهود أدبائك وكتابك وبفضل الصحافة المصرية والحياة السياسية ، وبفضل حركة التأليف والترجمة والنشر ، وبفضل المجمع اللغوي ، لغة راقية عصريَّة علميَّة سياسيَّة فنيَّة لا تقل في غزارة مادتها وقابليتها لتعليم العلوم العصرية والطبيعية والرياضية عن أية لغة من لغات الغرب .

أحيِّي فيكِ عدداً مشرفاً من الأدباء والكتاب ، فيهم الكاتب المبدع ، والمترسل القدير ، والأديب الفنان ، والباحث الناقد ، والعالم الضليع ، والمؤرخ الأمين ، والفيلسوف الحكيم ، والمحدِّث اللبق ، والروائي المصور ، والمتهكِّم اللاذع ، والمضحك المطرب ، والمصلح المنتقد ، والشاعر المطبوع ، والسياسي المناقش ، والصحافي البارع ، إذا كتب أحدهم في موضوع ردد العالم العربي صداه وافتخر المتأدبون بتقليد أسلوبه والنسج على منواله ، واحتجوا به كما يحتج بشعر القدماء .

أحيِّي فيك يا مصر هذا وغير هذا ، ولكن لي معك اليوم شأناً آخر ، إن لي معك كلاماً أرجو أن تلقي إليه سمعك ويشهد به قلبك فأنا ضيف قد نزل بك ، ومن حسن الوفادة وتمام الضيافة الاستماع إلى كلام الضيف والإقبال عليه بالسمع والقلب .

إن مسؤوليتك يا مصر أوسع وأعظم من تأدية رسالة الأدب وخدمة لغة العرب ، وما تجودين على الأقطار العربية الشقيقة برشحات الثقافة الأوروبية وفتات المدنية الغربية ، إنك بين آسيا وأوروبة فأنت ملتقى الثقافتين ومجمع البحرين ، إنك وسط بين مهد الإسلام ومشرق نوره ، وبين مولد الحضارة الغربية ومبعث العلوم العصرية ، فعليك مسؤولية القارتين ، وعندك رسالة الثقافتين .

فأما مسؤولية آسيا والأقطار العربية فلا تخرجين منها يا مصر حتى تكوني قنطرة تعبر عليها إلى البلاد العربية تجارب أوروبة وعلومها ونشاطها وكدحها في الحياة وجهادها للبقاء ، هنالك تقومين برسالتكِ ووظيفتكِ لهذه البلاد العزيزة ، التي ترتبطين بها برابطة دينية وروحية وثقافية وسياسية .

وأما مسؤولية أوروبة فلا تخرجين منها حتى تبلغي رسالة الجزيرة العربية ـ وهي الإسلام الذي احتضنته من زمان ـ إلى أوروبا وحل المشاكل التي أعيت كبار المفكرين وأتعبت عظماء المشرعين ، وبذلك تؤدين واجبك المقدس نحو هذه القارة الأوروبية التي استوردت منها شيئاً كثيراً من العلم والمصنوعات والمنتجات ، ونظمت عليها مدنيتك وحياتك تنظيماً جديداً ، وتحسنين إليها أكثر مما أحسنت إليك وتصدِّرين إليها أفضل مما صدَّرت إليك .

إنك يا مصر قد بنيت القناطر الخيرية فانتظم الريُّ ، وازدهرت الزراعة وأخصبت البلاد ، وأريد أن تبني قنطرة خيرية أخرى هي أكبر القناطر في العالم وأنفعها ، تصل بين بحرين لم يزالا منفصلين ، وبين حضارتين لم تزالا متنافستين ، وبانفصالهما ، وتنافسهما شقي العصر الجديد ، فلو أنك وصلت بينهما وكنت قنطرة تتبادل بها القارتان خيراتهما ومحاسنهما ، وفَّرت على الإنسانية جهوداً وأوقاتاً كثيرة وصنتها من الضياع ، كما أن قناطرك الخيرية وفَّرت على مصر مياهاً كثيرة ونظمت أمر الريِّ .

لقد كان حفر قناة السويس أكبر حادث في التاريخ العصري غير مجرى

التاريخ وأحدث انقلاباً في السياسة والتجارة ، ولكن من يستطيع أن ينكر أن شقاء الأمم الشرقية كان أعظم وأعظم من سعادتها ، وأنها لم تجن من قناة السويس إلا عبودية واستعماراً ، والعالم الآن في حاجة إلى قناة أخرى ، قناة التعارف الصحيح والتبادل المتوازن ، وإليك وحدك يا مصر القيام بهذه المبرة العظيمة لمكانكِ الجغرافيِ وأهميتكِ السياسية وثروتكِ الثقافية ومركزك الروحي ، تعلمين أن دولةً لا تتزن ميزانيتها ، ولا تتحسن أحوالها الاقتصادية ، إلَّا إذا وجد توازن بين حركة التصدير والتوريد وكان تصديرها أكثر من توريدها ، ولكننا في الشرق نورِّد أكثر ما نصدِّر ، وكانت قناة السويس أكبر مطية من مطايا هذا التوريد ، فلا نريد قنطرة أو قناة تكون معبر البضائع الأجنبية من أفكار وآراء وفلسفات وأخلاق إلى أعماق الشرق وأحشائه بل نريد قناة تساوي بين التوريد والتصدير ، وتصدِّر أفضل ما عند الشرق الإسلامي من رسالة وعقيدة وخلق وعلم ، وتورِّد أحسن ما عند الغرب من منتجات ومصنوعات وتجارب واكتشافات ومرافق الحياة ، فكوني يا مصر تلك القناة الأمينة العادلة التي لا تسمح بالمرور إلا للصالح الفاضل .

إن لك يا مصر يدين ، فخذي من الغرب ما فاق فيه من علم وتجربة ، فالحكمة ضالة المؤمن ، ومدِّي إليه يداً أخرى ، يد المساعدة والكرم ، وجودي عليه بما أنعم الله عليك من نعمة الإيمان وشرف الإسلام فذلك الذي لا يملكه الغرب ولا يستغني فيه عنك ، وقد انتهى به إفلاسه فيه إلى ما ترين من فوضى وانحلال فتصدقي عليه بهذا الإيمان ورسالة الروح ، ولا تنسي أبداً أن اليد العليا خير من اليد السفلى .

كوني يا مصر رسول الإسلام إلى الغرب ، واحملي إليه رسالة محمد ﷺ ، تلك الرسالة التي حملها العرب إلى الأمة الرومية والأمة الفارسية فأنقذتهما من مخالب الموت وأفاضت عليهما ثوباً قشيباً من الحياة ولوناً جديداً من النشاط ، وليس الغرب أقلَّ حاجة إلى هذه الرسالة ـ وهو في دور

التفكُّك وتنازع الموت والحياة ـ من الأمة الرومية والفارسية إليها ، وقديماً اختار الملوك وأصحاب الرسالة السماوية رسلاً من عشيرتهم والأقربين إليهم ، ولك من إبراهيم وإسماعيل ومحمد ﷺ رحم ماسة وقرابة خاصة ليست لقطر من الأقطار الإسلامية بعد الجزيرة العربية .

إن أوروبة قد شاخت ونضجت كالفاكهة التي أدركت وضعف الغصن عن حملها ، فاستعدِّي يا مصر الإسلامية لتحلي محلها في الزعامة العالمية وقيادة الأمم ، وما ذلك بعزيز ولا بمستحيل ، إذا تم استعدادك الروحي والخلقي والمادي ، وإذا كانت أوروبة قد احتفظت بالقيادة العالمية هذه المدة الطويلة وليست عندها رسالة عامة للإنسانية ولا دعوة مخلصة لأمم العالم وعندها كل ما يضعف ثقة العالم بها من وطنية وعنصرية وتقديس للنسل الآري ، وإدلال باللون الأبيض ، ونزعة تجارية واستعمار ، فكيف لا يرضى العالم بقيادتك وعندك الرسالة التي تضمن سعادة العالم كله ، ودين لا يفرق بين الأوطان والعناصر والألوان ؟

احرصي يا مصر على رجولة أبنائك وأخلاقهم ، وصوني شبابهم وشرفهم ودينهم وصحتهم من أن يعبث بها العابثون أو يتَّجر بها المتَّجرون ممن يعيشون على أثمان الأعراض والأخلاق ويحبُّون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لتروج بضاعتهم وتزدهر تجارتهم ، أولئك هم أصحاب الروايات الخليعة والصور العارية والأدب المكشوف ، فإنك يا مصر في محل الزعامة والقيادة للشرق الأوسط ، وفي طريقك إلى الزعامة والقيادة للعالم الإسلامي ، ولا تأتي الزعامة والسيادة إلا بعد الاستقامة والثبات في مزالق الإنسان ، والنجاح البارز في امتحان العفة وطهارة الأخلاق ، واذكري قصة يوسف التي مرَّت على أرضك ووقعت بين سمعك وبصرك كيف ثبت في الامتحان ، وكيف حافظ على دينه وعفته ، فكانت نتيجة ذلك الثقة والاعتماد والسيادة والملك ، واقرئي إن شئت : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي

ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [يوسف : ٥٦] .

بل ولا حياة ولا شرف إلا بالرجولة والأخلاق ، فكيف وأنت في ميدان القتال وساحة الجهاد ، فلا بد أن تحفظي وصية قائدك الكبير سيدنا عمرو بن العاص وتذكري ما قال لخلفائه في أرضك : « واعلموا أنكم في رباط إلى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم ، وتشوُّف قلوبهم إليكم وإلى داركم » .

فكافحي يا مصر الوباء الخلقي الذي يقضي على حيوية الأمة أشد مما تكافحين وباء الكوليرا الذي يقضي على حياة بعض الأفراد ، وطاردي كل من يحاول أن يزعزع العقيدة في شعبك ، ويزلزل الإيمان ويفسد الخلق أشد مما تطاردين من ينشر الوباء أو يسبب الأمراض أو ينقل إلى أرضك الميكروب ، فلم نسمع أن الأمة العظيمة ماتت وبادت بسبب وباء أو مرض ، وأن اليونان اجتاحهم مرض من الأمراض ، ولكنا قرأنا في التاريخ وشهدت أنت أن هذه الأمم كانت كلها فريسة التفسخ الخلقي ، والأمراض الاجتماعية ، فاحذري يا مصر ـ صانك الله وحرسك ـ هذا المصير المؤلم .

إن العالم العربي قد أحلَّك يا مصر من نفسه محلاً فيعاً ووضع ثقته فيك وفتح لك أذنيه وعينيه ، فاتقي الله يا مصر فيمن ائتمنك ووثق بك في نفسه وعقله ، ولا تصدري إليك من أدبك ومطبوعاتك ما يرزؤه في إيمانه وأخلاقه وقوته المعنوية وروحه ، كما لا ترضين ولا ترضى كرامتك ومروءتك أن تصدري إلى زبائنك من الدول والبلاد الحبوب المسمومة والفواكه الموبوءة ، ولا تقبلين أن يصدرها إليك أحد ، وصدقيني يا مصر العزيزة أن هذه الروايات الخليعة والأدب الماجن أفسد وأضر للأمة والحياة من الحبوب المسمومة والفواكه الموبوءة ، إنك زعيمة للعالم العربي فلا تغلبنك النزعة التجارية ولا تغرنك المنافع المؤقتة ، فلا يكون زعيماً

ولا يكون عظيماً من يؤثر العاجل على الآجل ، والمنفعة الفردية على المنفعة الاجتماعية والأثرة على الإيثار .

إنك يا مصر من أغنى بلاد الله ، ولست أعني بالغنى خصب الأرض وكثرة الموارد ، وإنك لغنية فيها من غير شك ، ولكني أعني غناك في المواد الخامة ، وهي الشعب الذي توفرت فيه المواهب والقوى ، خصوصاً ما يسكن منه في أريافك ، فهي المناجم التي لا تزال مدفونة ، والمعادن التي لم تستخرج بعد ، هذا الشعب قويُّ الإيمان ، قويُّ الشخصية ، قويُّ الجسم ، فلو أنك أحسنت تعليمه وتربيته ، وأفدت من هذا الإيمان ووضعته في محله لكان حارسك الأمين وجندك القوي وثروتك العظيمة .

قد اختار الله لك يا مصر قارة من أوسع القارات وأكثرها مواد خامة ، هي القارة الإفريقية ولا يزال جزء كبير منها على سذاجته وفطرته ، ولا تزال فيها أمم على الجاهلية الوثنية ، وعلى الجهالة والضلالة ، ولا تزال فيها أمم كاللوح الصافي يكتب الإنسان فيه ما يشاء ، وهذه الأجزاء من القارة ، وهذه الأمم خير حقل لجهودك وتربيتك ، وخير أرض لزراعتك وغرسك ، فأرسلي إليها دعاتك المبشِّرين ورجالك المصلحين وعلماءك المرشدين وأبناءك المعلمين ، يبلغونهم الدين ويتلون عليهم آيات الله ويعلمونهم الكتاب والحكمة ، وبذلك تنقذين بإذن الله نفوساً كثيرة من النار ، وتخرجينها من الظلمات إلى النور ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها وتكتسبين قلوباً نقية وأرواحاً فتية وأجساماً قوية ، ويكون ذلك خيراً لك من هذه الأمم والدول الغربية التي تخطبين ودَّها وتحرصين على صداقتها ، وهي لا تدوم على حال بل تجري وتدور مع أغراضها المادية ومصالحها السياسية ، فيوماً هي معك ويوماً مع أعدائك ، وإذا كانت معك لم تكن بإخلاص وصدق ، وإنما هي المطامع والمصالح ، وما أضعف الصداقة التي تقوم على المطامع والأغراض ! .

وأخيراً أريد أن أقول في أذنك يا مصر إن لله في خلقه شؤوناً وإنه أعظم

غيرة من كل غيور ، وإنه لا يعطي نعمة دينه إلَّا من يعظِّمها ويجلُّها ويقدِّرها حق قدرها ، فإذا رأى منك استغناءً عن الدين وما ينبىء عن احتقار لشأنه ، واستصغار لأمره ، وزهداً في الإسلام ، وانصرافاً عن خدمته ، وتقصيراً في أداء رسالته ، واعتزازاً لمبدأ غير الإسلام ، وتشرفاً بغير محمد عليه الصلاة والسلام، استغنى عنك ـ على مآثرك السابقة وثروتك الضخمة ومدنيتك الفخمة ـ ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٦٢] وجاء لخدمة الإسلام وقيادة الأمم الإسلامية ، بأمة لم تخطر منك على بال ، تعتز بالدين وحده وتتشرف برسالة الإسلام ، وتتشبع بحب محمد ﷺ ، وتلتهب غيرة دينية وحماسة إسلامية وتجاهد في سبيل الله ولا تخاف لومة لائم ، وإن الله تعالى حذر العرب الأولين وقال لنبيه ﷺ : ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٨٩] . وقال للمسلمين العرب : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴾ [محمد : ٣٨] .

﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الفتح : ٤] وفي كنانة الإسلام سهام لم يرها أحد ولا تخرج إلَّا في وقتها ، ومن يدري فلعلَّ شمس الإسلام تطلع من المشرق ، وهذه أمم إسلامية فتية على سواحل المحيط الهندي وفي جزره تتحفَّز للوثوب وتتهيأ لقيادة العالم الإسلامي . فاحتفظي يا مصر العربية بمكانتك ومجدك ولا تأمني دورة الأيام ولا تأمني مكر الله : ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف : ٩٩] . هذه تحيَّتي إليكِ يا مصر العزيزة فتقبَّليها ، وهذه آمالنا فيك فحققيها ، وكلمة مرَّة في الأخير فتحمَّليها ، وهذه معذرتي إليك فاقبليها ، والسلام عليكِ ورحمة الله وبركاته .

* * *

اسمعي يا سورية

[وَجَدَ العلامة الندوي أثناء إقامته بدمشق - في زيارته الثانية لها - عام ١٩٥٦م فُرَصاً للتحدُّث والخطاب في الإذاعة السورية حيناً بعد حين ، فألقى أول حديث فيها بعنوان : « اسمعي يا سورية » ، حكى فيها العلامة أولًا قصة معرفته بالشام وصلته الدينية والروحية والعاطفية بها الّتي بدأت أيام الصبا ، ثم ذكر تلك الشخصيات الجليلة في الشام من الصحابة الكرام رضي الله عنهم ، وعظماء التاريخ الإسلامي ، وذكر لهم كيف يتذكر العالم كله الشام الحبيبة ، وما هي المناسبات التي تذكّره بالشام ويطالبها بإعادة دورها وتاريخها ، ثم شرح لهم سرّ مجدها الغابر ، وكيف أنها شملت الجزء الكبير من العالم بعطفها ورحمتها وظلالها الوارفة ، وكيف تستعيد الآن مجدها وعزتها ، وأن الشعوب لا تتبوَّأ منصب الحب والعزة والكرامة باللغات والآداب ، والمدنيات والقوميات ، بل إنها تتبوّأ هذا المنصب برسالاتها ودعواتها الخاصة وأهدافها الصالحة ، وخدمتها المخلصة للإنسانية البائسة ، وأن على الشام أن تجاهد لها ، وأن نجاة العالم اليوم تعتمد على أن يتعاون الشرق والغرب في تخليصه من الأزمات المعاصرة ، الشرق بإيمانه ويقينه وروحه ، والغرب بتنظيماته وعلومه الجديدة ، وتستطيع الشام أن تساهم مساهمة فعالة في هذا العمل البناء التاريخي .

وقال العلامة أخيراً في هذا الحديث : إن نعمة الإسلام التي حظيت بها الهند على يد محمد بن القاسم الثقفي ، الذي كان أحد القادة الدعاة في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك ، وكانت دمشق هذه عاصمة الوليد ، إن هذا النداء والاعتراف إنما هو نوع من المكافأة والشكر على ذلك الإحسان والمنة العظيمة ، وإنما هي ضريبة الحب والوفاء والإخلاص .

وإليك الآن هذا الحديث المستفيض الّذي وجّهه العلاّمة إلى سورية مخاطباً لها ، أذيع هذا الحديث من الإذاعة السورية بدمشق :]

أحييك يا سورية تحية من أحبكِ صغيراً ، وعاش في ذكرياتكِ وأخباركِ دهراً طويلاً ، لقد سمع في طفولته ملاحم الإسلام ، وفتوح الشام فعرف مدنك وقراك كما عرف مدن بلاده وقراها ، ودرس في شبابه تاريخ الإسلام فرآكِ تشغلين منه مكاناً واسعاً ، وتضعينَ إليه صفحات مشرقة لا يزال المسلمون يستمدون منها الإيمان ، ولا يزال العرب يذكرون بها العهد الذي كانوا يحكمون فيه نصف المعمورة .

أحييك يا سورية تحيَّة مِنْ نفسي وعقيدتي وضميري ، فكل منها يتنافس في تحيتك ، وكل منها يدين لك بالفضل ، فقد غمرت نفسي بالسرور والإيمان ببطولة من بذل نفسه ، وأراق دمه على أرضك ، وقويت عقيدتي في انتصار الروح على المادة ، والفضيلة على الرذيلة ، وانتصار قوة الإيمان على قوة السيف والسنان ، وقوة الأبدان ، وكثرة الأعوان ، وما اليرموك عنك ببعيد ، وما يوم حليمة بسر ، وأيقظت ضميري لفهم معان أسمى من السماء ، وأعذب من ماء بردى ، هي معاني الثقة بالله ، وعلو الهمة في سبيل الله ، والعطف على عباد الله ، والعدل بين الناس ، معان تجلت على أرضكِ وحواها تاريخكِ ، فتحيَّتي لك يا سورية تحية النفس والعقيدة والضمير .

أحييك يا سورية عن نفسي ، وأبلغك تحيات ملايين من البشر يسكنون وراء البحار ، ويحنون إليك على بعد الدار .

لا تستغربي يا سورية العزيزة هذا العدد الضخم ، فإنَّ على شواطىء البحر الهندي ، ووراء جبال هملايا أمة كبيرة العدد ، قوية العاطفة ، صادقة الوداد ، قد عرفتك قديماً ، وأحبَّتك شديداً ، وذكرتك كثيراً .

ذكرتك كلما أذَّن المؤذِّنون ، وكلما دوَّى في الفضاء صوت « أشهد أن

لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله » كلما سمعوا الأذان ذكروا مؤذن رسول الله ، ذكروا بلالًا الحبشي ، فذكروا به الشام الذي آثره بالإقامة ، والاستراحة إلى يوم القيامة .

ذكروكِ كلما سمعوا ببطولة بطل ، ومغامرة مقدام ، ذكروا به بطل الأبطال « سيف الله خالد بن الوليد » الذي تبسَّم في وجه الموت وسخر بالمخاوف ، ورمى بنفسه في كل معركة ظن فيها الشهادة فخرج منها ظافراً منتصراً ، ذلك البطل الذي استهان بحياته فعزت ، وهانت نفسه عليه فكرمت ، هو الذي أذاقك يا سورية لذة الإيمان والعدل والرحمة والمساواة ، ولا يزال في حمص رمز قوة الإسلام ، ومفخرة الشام .

ذكروكِ كلما سئموا الظلم والخيانة ، وحنُّوا إلى العدل والأمانة ، وكلما رأوا حيفاً من الحاكمين وقسوة في الفاتحين ذكروا ذلك الفاتح الرحيم الذي كتب لأهل دمشق الأمان ورفع الحصار ورد إلى أهل حمص ما أخذ منهم من الخراج بحجة أن المسلمين مشغولون عن نصرتهم والدفع عنهم بما يستقبلونه من حرب حاسمة في اليرموك .

إنهم ذكروك كلما ذكروا « أمين الأمة » وكلما اشتدت الحاجة إلى قويٍّ أمين ، وفاتح رحيم ، وكلما اشتدت الحاجة إلى قائدٍ يجمع بين الشجاعة والرحمة ، والبطولة والحكمة ، والسياسة والدين ، والشدة واللين .

ذكروكِ يا سورية كلما اشتغلوا بالحديث والفقه ـ وما أكثر من يشتغل في هذه البلاد بالحديث والفقه ـ وكلما مرت بأسماعهم أسماء حبيبة من صحابة الرسول ﷺ وقراء القرآن ، ورواة الحديث وفقهاء الأمة ، كلما مرت بأسماعهم أسماء معاذ بن جبل ، وأبي الدرداء ، وسعد بن عبادة ، وأبي بن كعب ، وبحثوا عن مدافنهم فوجدوها في ربوعك وأحضانك .

يذكروكِ كلما وجدوا طرازاً واحداً من الملوك والأمراء والحكام والوزراء مهما اختلفت الألقاب وتنوعت الأسماء ، وجدوا الأنانية والأثرة ،

والمحسوبية ، والمحاباة ، والعبث بأموال الشعوب والترف على حساب الفقراء .

ذكروا تلك الشخصية الفريدة الفذة التي فاجأت التاريخ وفاجأت الإنسانية في آخر القرن الأول الهجري ، ولمع في أفقك يا دمشق نور أضاء له العالم ، واستقبلته الإنسانية ، فقد عمَّ العدل واتجه المجتمع إلى الدين والأخلاق ، ووجد كل أحد ما يحتاج إليه ، وعمَّت الرفاهية وفقد الفقر المدقع ، وبحث الناس عمن يقبل الزكاة فما وجدوه ، وخاف العصاة والمجرمون ، وارتدع القساة والظالمون ، تلك شخصية عمر بن عبد العزيز ـ سلام الله على عمر بن عبد العزيز ـ شخصيته كانت كوميض البرق وفلتة الدهر ، لم يزل التاريخ يحنُّ إليها ، ولا تزال الإنسانية تصبو إليها وما من يوم إلَّا والإنسانية إليها أفقر وأشد حنيناً ، فلو لم تكن لك يا سورية حسنة سوى هذه الحسنة ، ولو لم تنجب أرضك يا سورية غير هذا الوليد ، لكفاك فخراً وكفاك فضلاً على الإنسانية ، وشرفاً على البلاد .

وكم هنالك يا سورية من مناسبات كريمة تجدِّد ذكركِ وتلفت الناس إليكِ ، فكم في مقابرك من عظماء الإسلام والأئمة الأعلام كم فيها من المحدثين وعلماء الرجال كابن الصلاح والذهبي والمزي ، ومؤرخين كابن خلكان وابن عساكر ، وابن كثير ، وأبي الفداء ، وأئمة كالنووي وابن تيمية وابن القيم ، وصوفية كإبراهيم بن أدهم وأبي يزيد البسطامي ومحيي الدين بن عربي .

وفي حجرك يا دمشق يرقد ذلك الأسد الذي ملأ الفضاء بزئيره ، وخلع قلب الغرب بشجاعته ، كما ملكه برحمته وإنسانيته الرفيعة ، ذلك الذي زحف إليه الغرب بأقياله وأبطاله ، وأسوده وأشباله ، وأجلب عليه بخيله ورَجِلِهِ ، فناهضه وحده ، وكسره في « حطين » كسرة شنيعة لم يقم بعدها ، وحفظ على الإسلام حرمه وحرمته ، وعلى الشرق شرفه وكرامته ، ذلك صلاح الدين ـ سلام الله على صلاح الدين ـ فلولا هو لانتهى العالم

الإسلامي وتحطم الشرق ، وعاث وحوش الغرب في ربوعه يستأثرون بخيراته ويستبدُّون بحكمه ، ويتحكَّمون في أمواله وأعراضه ، ويضطهدونه في دينه وعقيدته ، ويرزؤونه في أخلاقه وروحه ، وكان العالم الإسلامي كله مستعمرة غربية ، وكان فيه عشرات « فلسطين » وعشرات « الجزائر » فلكِ يا سورية الكريمة منة على العالم الإسلامي وفضل على الشرق العربي في شخص صلاح الدين الأيوبي ، الذي ترعرع على أرضك ، وتنبَّل في تربية ملكك الصالح نور الدين ، ومنه تولَّى قيادة الجيوش ، وفي أرضك دفن .

لقد أتى عليك يا سورية ـ وكنت تسمَّين يومئذ الشام ـ حين من الدهر ، وأنت تحكمين أكبر قطعة من العالم المتمدن المعمور ، وكانت مملكتك العظيمة لم تكن لتقطع مسافتها في أقل من خمسة أشهر على أسرع جمل ، وكان الخراج يجبى إليك من الهند في الشرق ومن الأندلس في الغرب ، ولم يزل سلطانك يتقلص ، ودائرة نفوذك تضيق ، وحدود مملكتك تقصر وتنزوي حتى انطويت على نفسك ، واقتنعت بهذا القطر الذي يسمى « سورية » وتخليت عن القيادة العالمية ، فما السر في ذلك يا سورية العزيزة ، وما سبيل الرجوع إلى ذلك المركز العظيم ؟ .

ولعلك تقولين : إن العراق هو الذي انتزع مني هذه الزعامة في القرن الثاني الهجري ، وحلت بغداد محل دمشق فكانت مركز الخلافة ؛ وكانت عاصمة الإمبراطورية الإسلامية العظيمة .

ولكني أوجه نفس هذا السؤال إلى العراق ، فقد كان مصيره في منتصف القرن السابع كمصيرك يا سورية في القرن الثاني ، إن سبب هذه النكسة العظيمة التي واجهتها أنت وواجهها العراق بدوره أعمق مما ظننته .

واسمحي لي أن أشرحه ، إن سر عظمتك يا سورية وسيادتك على العالم كله ، سيادة دامت قرناً كاملاً ، هو أنك تزعَّمت هذه الأمة التي بعثت بعثاً جديداً وكلفت تبليغ رسالة إنسانية عالمية .

تقدَّمت أنت بشجاعتك وطموحك وهمَّة خلفائك الذين كانوا يحكمون

في دمشق ، وتكفلت قيادة هذه الأمة ، فكان قادتك العظماء يفتحون البلاد ، وينشرون الإسلام ، وينشرون الدين والعلم ، ويعلمون الأخلاق والفضيلة ، والإنسانية والكرامة ، كذلك فعل محمد بن القاسم في الهند ، وطارق بن زياد في الأندلس ، وموسى بن نصير في المغرب ، فكان الفتح والرسالة مترافقين وكان قادتك رسل الخير والفضيلة ، ومشاعل العلم والإصلاح ، وكانت جيوشك جيوش الإنقاذ ، وكان رجالك رجال الإسعاف ، تخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، وتضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ؛ وكان الناس في حاجة إلى هذه الرسالة حاجة الأرض الجدبة إلى الأمطار ، وكانوا في حاجة إلى الحكم العادل حاجة المسجون إلى الحرية فاستقبلوا رسله ورجاله وتفتحت لهم قلوبهم وبلادهم ، وارتمى العالم السليب الحزين في أحضانك كما يرتمي الطفل الصغير المذعور في أحضان أمه وأبيه ، وتكونت دولة من أعظم دول العالم ، وكانت لكِ وصاية على الشعوب والأمم .

ولكنكِ بدأت ـ ولا مؤاخذة يا سورية الحبيبة ـ تعتمدين على قوتك وفتوحك أكثر مما تعتمدين على قوة هذه الرسالة ، وتعنين بجمع الأموال ، أكثر مما تعنين بأخلاق الرجال ، وصلاح الأحوال ، وبدأ رجال الحكم ، وعمال البلاد ، وجباة الأموال يتخلفون في أخلاقهم وصفاتهم ، وأصبحوا كسائر الحكام والعمال في سائر الدول والحكومات حتى لم يمض قرن على مملكتك العظيمة حتى صار الناس يشعرون بذلك في نواحي المملكة ، فقد حدث التاريخ أن رسل يزيد بن عبد الملك ذهبوا إلى رُخّج وسجستان لتحصيل الخراج والأتاوة المفروضة عليها ، فقال لهم ملك هذه البلاد واسمه رتبيل : « ما فعل قوم كانوا يأتون خماص البطون سود الوجوه من الصلاة ؟ قالوا : انقرضوا ! قال : أولئك أوفى منكم عهداً وأشد بأساً ؛

وإن كنتم أحسن منهم وجوهاً » ثم لم يعط أحداً من عمال بني أمية ولا عمال أبي مسلم على سجستان من تلك الأتاوة شيئاً .

فقد خضع لك العالم يا سورية في القرن الأول ، وقامت عليه وصايتكِ ، لأنك كنتِ تمثلين ديناً جديداً قضى الله بظهوره وانتصاره ، وتحملين الرسالة الكريمة التي تنقذ البشرية من الجهالة والظلم واستعباد الإنسان للإنسان ، ولا تعيشين لنفسك ولمصالحك وشهواتك ، بل تعيشين للعالم ولصالحه ولخير الإنسانية جمعاء ، فمشى العالم كله في ركابك وأحبتك الأمم المفتوحة ، ومتى أحبت الأمم المفتوحة فاتحها ؟ فاختارت لغتك وثقافتك ودينك وعقيدتك أما وقد اشتغلت بنفسك وتخليت عن رسالتك ، فقد انقطعت صلة العالم بك ، وأصبحت قطراً من الأقطار ، ودولة من الدول .

ولكن شأنك غير هذا الشأن يا سورية العظيمة ، إن موقعك الجغرافي ، وأهميتك الحربية ، وتاريخك الماضي ، وشعبك السليم المؤمن ، كل يشير إلى أنك خلقت لغير هذا وأنك تسيئين إلى نفسك وتظلمينها لو اقتنعت بالدون ، وزهدت في الزعامة العالمية ! .

ولكن كيف السبيل إلى ذلك ، والزعامة ليست بالأمر الهين ، وهنالك بلاد أوسع مساحة وأغنى في الوسائل والإمكانيات وأكثر عدداً وعدة ؟! .

إن السبيل الوحيد إلى ذلك يا سورية أن تحملي الرسالة التي حملتها في عهدك الأول ، وعهدك الزاهر الذهبي ، وأن تتبني تلك الدعوة التي تبنيتها في القرن الأول فتتملكك كما تملكتك في العهد الأول ، وتخلصين لها اليوم كما أخلصت لها بالأمس ، وأن تجعلي العالم يشعر بحاجته إليك ، ويثق بإخلاصك ونفعك ، واحملي إليه رسالة الدين السماوي الذي أكرمك الله به منذ ثلاثة عشر قرناً ، يوم كنت تعانين من ظلم الرومان وحيفهم ، ما يعاني كثير من الشعوب اليوم من الظلم والاستبداد ، وشرور الاستعمار .

إن الأمم يا سورية ، لا تسود باللغات والثقافات ، ولا تسود بالمدنيات

والقوميات ، إنما تسود بالرسالات والدعوات والأهداف والغايات ، وكلما كانت هذه الرسالات أعم للشعوب والأمم وأعْوَد على الإنسانية بالخير والسعادة ، وكلما كانت هذه الأهداف والغايات أسمى وأعلى ، وأبعد عن الأغراض الشخصية أو الحزبية أو الإقليمية ، وأعرق في الإنسانية ، كانت سيادة هذه الأمم التي تحتضن هذه الرسالات ، وتدين بهذه الغايات أعمق وأرسخ وأوسع وأقوى ، ولا تزالين تملكين هذه الرسالة ، وهي الرسالة التي حملتها إليه غزاة العرب ودعاتهم في العقد الثاني من القرن الأول ، ولا تزالين تعرفين هذه الغاية السامية التي خرجوا لتحقيقها من جزيرة العرب .

دعي التردد يا سورية ، فلا أضر على الأمم من التردد وخذي بالعزم ، والأمر الجزم ، واحملي راية الإيمان والدعوة في الخارج ، وراية الإصلاح والتربية في الداخل ، وحاربي فساد الأخلاق والتحلل ، والميل الزائد إلى الملاهي ، والرخاوة والترف ، فلا بقاء لأمة ولا قوة على عدو بانحلال الأخلاق ، ورخاوة الأجسام ، والترف الفاحش ، واذكري أن من أسباب انتصار العرب تقشفهم في الحياة واحتمالهم للمشاق ، ومن أسباب انكسار الروم تنعمهم في الحياة وغلوهم في المدنية ، ولا تنسي أنك دائماً على الحدود فلا تضعي السلاح ولا تميلي إلى الدعة والراحة ، ولا تمكني الغواة والذين تجارتهم في الأخلاق والأعراض من إفساد شبابك وإضعاف العقيدة والقوة المعنوية .

لقد كانت لنا قومية نعتزُّ بها يوم جاء رسلك ودعاتك إلى بلادنا ، وكانت لنا لغة لا نعدل بها لغة ، كانت لنا عصبية نقاتل في سبيلها ، فتخلَّينا عن كل ذلك واندمجنا في القومية الإسلامية العظيمة ، وعكفنا على دراسة اللغة العربية الكريمة ، وتركنا العصبية القومية والحمية الجاهلية ، فالله يا سورية الإسلامية ، لا تتمسكي بما أبعدتنا منه من النزعات الجاهلية والقوميات الضيقة ، ولا تقعي في الحمأة التي أخرجتنا منها .

لقد طار صقر قريش من أرضك ، فأسس في الغرب دولة وحاضرة بقيت مدرسة الغرب ثمانية قرون ، ولا يزال الغرب يدين لها في معرفة مبادىء الحضارة ومبادىء العلم والحكمة ، فأقبلي يا سورية مرة ثانية إلى الغرب برسالتك وأنت في مركز تستطيعين فيه أن توجهي الغرب في حضارته وحياته وتكملي بإيمانك وروحك ما ينقصه من إيمان وروح ، لقد كان اللائق أن تكون الاستفادة بينك وبين الغرب متبادلة ، وأن يكون التصدير بقدر التوريد ، فإذا أخذت منه مما يفوقك فيه وسبقك إليه من مصنوعات وآلات ، فكان اللازم أن تصدِّري إليه وتهبينه مما تفوقينه فيه من مبادىء وغايات ومما تفرَّدت به من وحي ورسالات ، وإن الحضارة المثلى التي فيها سعادة الإنسانية هي التي تجمع بين الغايات الفاضلة والدوافع الحسنة ، وبين فرص العمل وقواه التي يتمكن بها الإنسان من تحقيق هذه الغايات والوصول إلى هذه الأهداف ، ولا شك أن هذه الحضارة لا تظهر إلى الوجود في هذا العصر ما لم يتعاون الشرق والغرب بعضهما مع بعض ولم يسهما في تكوينها وإبرازها ، ذلك بإيمانه وهذا بتنظيمه وعلومه ، فاعرفي يا سورية ضخامة مسؤوليتك وعظم الدور الذي تستطيعين أن تمثليه .

أما بعد ، فقد كان لك على بلادنا فضل ، ولا يزال ، وذلك عن طريق محمد بن القاسم الثقفي ، الذي سار إلى الهند بجيوش المجاهدين ودعاة الإسلام المؤمنين ، في عهد الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي ، فأحبته الهند وخلَّدت ذكراه ، وذاق كثير من أهلها طعم الإيمان ، وكان دخوله فيها فاتحة عهد جديد .

وما دفعني إلى هذا الحديث إلَّا تقدير هذه اليد البيضاء والحق القديم ، ولعلي قمت بذلك ببعض الواجب ووفيت شكر النعمة والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

* * *

اسمعي يا زهرة الصَّحراء

[ألقى العلامة الندوي هذا الخطاب بالإذاعة الكويتية بعنوان « اسمعي يا زهرة الصحراء » خلال زيارته للكويت عام ١٩٦٢م ، ذكر العلامة في هذا الخطاب أولًا ظهور دولة الكويت فجأة ورقيها ، وازدهارها كما تظهر زهرة جديدة في الصحراء ، ثمَّ لفَت الأنظار إلى ما تستطيع الكويت أن تقوم به من دور في المدنية الحاضرة والخريطة العالمية ، وما هي شخصيتها ، وما هي سيرتها المثالية التي ينبغي أن تتظاهر بها أمام العالم ، وكيف يقدر على أن يتبوأ مكانة العزة والكرامة في العالم . إليك هذا الخطاب بكامله :]

لم يكن يصدَّق في الزمن القديم أن في الصحارى القاحلة أزهاراً ورياحين ولكن من رأى هذه المدينة الزهراء الوليدة ، التي قفزت من وسط الصحراء ، ومن بين الرمال الوعساء في عقد من السنين وعلى غفلة من الناس ، تبدو كزهرة جميلة في صحراء وتزهو بأنوارها المتنوعة في الليل ، وبمبانيها الأنيقة من أحدث طراز في النهار ، صدق أن الصناعة والعلم يحوِّلان الصحراء حديقة ، والقفر الخالي مدينة ، وأن في بطن الصحراء كنوزاً وطاقات إذا أثيرت واستثمرت في صالح الإنسانية وتقدُّم المدنية صنعت العجائب وحيَّرت الألباب وعادت بالخير الكثير .

إنك يا زهرة الصحراء ، يا مدينة الكويت من أحدث مدن العالم وأحدث العواصم العربية سناً ، ولكنك تمثلين من النبوغ والجد ما لا يثبت حداثة السن وإنك تتقدمين إلى الشباب والاكتمال بخطى سريعة جريئة ، فلا يمضي عليك كثير إلا وأنت من مدن الشرق العربي الكبيرة وتحتلين من بين شقيقاتك المتقدمة في السن المكانة الرفيعة .

إن كثيراً من الناس يردُّون الفضل في ازدهار الصناعة والتجارة وتقدم

المدنية والحضارة إلى هذا النفط الذي انطويت عليه قروناً ، وقد خرج حين أراد الله فعاد عليك باليمن والبركة ، وعلى البلد بالرخاء والثراء ، ولكنه ليس مرد الفضل وحده وليس السر في تقدمك وازدهارك ، فلو فقد النشاط والذكاء وفقد العمل والإرادة لما نفع هذا الذهب الأسود وضاع في أمور تافهة لا قيمة لها .

إنك يا زهرة الصحراء قد قطعتِ شوطاً واسعاً في المدنية العصرية وبرزت كلؤلؤة جميلة في العمارة والحضارة ، ولكني أرى مع كل إعجاب لهذا التخطيط البديع ، أن مهمتك أعظم وأوسع من أن تكوني مدينة من أجمل مدن الشرق ، فليس ذلك بميزة كبرى تعتزين بها ، وليس ذلك ما يطلبه منك العالم اليوم ويحتاج إليه أشد الاحتياج ، إنك مدينة ذات تاريخ وتراث وقطعة من صميم تلك الجزيرة العربية ، التي لم تر أن تضيف يوم نهضتها إلى مدن العالم الكثيرة الجميلة في القرن السادس المسيحي مدينة جديدة ، فلم يكن ذلك زيادة تشكر عليها وتذكر في التاريخ ، إنما جاءت على الإنسانية المعذبة الشقية بمدنية جديدة ، مدنية تقوم على العقيدة والروح والأخلاق إنها أعادت إلى الإنسانية ما فقدته من قرون من العلم الصحيح والإيمان القوي والدافع الخير ، ذلك ما أصبحت بفقده الأمم قطعاناً من الغنم وعصابات من اللصوص ، إنها منحت الإنسانية رسالة سماوية جديدة ، وقوة مقاومة للشر والرذيلة ، كانت قد فقدت من زمن بعيد ، ومنحتها الفرد الصالح القوي الأمين الذي يوجه المدنية توجيهاً صحيحاً ويملأ كل فراغ في الحياة والمجتمع ، فكان فيما أتحفته إغاثة للإنسانية الملهوفة وإسعاف للمجتمع العليل ، وفتح جديد في التاريخ الإنساني ، وكان أفضل هدية تقدمت بها أمة أو بلاد إلى العالم في زمن من الأزمان .

إن هذه الجزيرة قد أنجدت الإنسانية ومدَّت إليها يد المعونة والإحسان ساعة احتضارها وانهيارها ، يوم أشرفت سفينة الحضارة ـ بما فيها من كنوز

وعلوم وتحف وتراث ثمين ـ على الغرق وعتا الموج ، ودجا الليل وهجم القرصان ، وفقد الدليل وأظلمت الطرق وأسقط في يد الربان ، واقرأ إن شئت :

﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ [آل عمران : ١٠٣] .

إن هذه الجزيرة قد برزت إلى العالم بدين جديد متدفق بالحياة ، وبجيل جديد متدفق بالحيوية والنشاط ، ممتلىء بالحماسة وقوة العمل ، غني القلب ، كبير النفس ، بعيد النظر ، عالي الهمة (أبر الناس قلوباً ، وأعمقهم علماً وأقلهم تكلفاً) قوي الروح ، قوي الإيمان ، قوي الجسم ، متقشف في الحياة ، زاهد في المظاهر ، مستخف بالزخارف ، متمسك باللباب ، مستهين بالقشور ، قد شغله الإشفاق على مصير الإنسانية والشفقة على خلق الله ، والتألم لظهور الفساد وضياع الإنسانية عن حسد الأغنياء والملوك ومزاحمتهم في البذخ والنعيم ، وشغله هم الآخرة عن التوسع الكثير في المطاعم والمشارب ، والتأنق الكبير في الملابس والمساكن ، جمع بين الحياة البسيطة القانعة الزاهدة وبين المغامرات العظيمة والدولة الكبيرة والفتوح الواسعة ، فكان جيلاً فريداً في التاريخ في قوة إيمانه وقوة شخصيته وجمعه بين الأضداد .

لقد كان في عواصم العالم وفي مراكز الحضارة الرومية والفارسية من مظاهر الأبهة والترف ما يطمع فيه العربي المنعزل في جزيرته ، وما يتحلب عليه فمه ويحسد فيه الأمراء والأغنياء الذين احتكروه لأنفسهم ، وقد كان هذا ظن الروم والفرس يوم خرج العرب من جزيرتهم ينشرون الإسلام ويفتحون العالم وينقذون الأمم ، فاعتقدوا أن العرب إنما ضاقت عليهم الجزيرة الفقيرة وأجهدهم الجوع ، وجاء بهم الطمع ، ولكن العرب أعلنوا أنهم يعيشون في سعة من نفوسهم المؤمنة المطمئنة ، وفي سعة من صحرائهم الفسيحة المترامية الأطراف ، وفي سعة من حياتهم الطبيعية

الراضية ، وأن الضيق هو ما فيه الروم والفرس من حياة مصطنعة ، وحضارة متكلفة ، ومدنية عجمية ، وعادات قاهرة ، طاغية ، وأعراف ظالمة ، وأساليب مفروضة ، وآداب مخترعة ، فهم في قفص من ذهب مؤصد الأبواب ، مؤصد النوافذ لا يدخل فيه من النور والهواء إلا ما يعيش به الطائر المدلل ، وإنما أخرجتهم الرحمة والرثاء للبؤس الذي تعيش فيه الأمم ويعيش فيه الملوك ، والرثاء للجاهلية التي خرجوا منها ولا تزال تتورط فيها الأمم ، فقالوا في ثقة واعتداد وفي عزة نفس وإيمان : « الله بعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام » .

لقد كانت الحضارة الرومية والفارسية التي بلغت أوجها وزهوها في القرن السادس المسيحي ومن أساليب عيشهم كثير مما تحرص على تقليده الأمم المتخلفة في المدنية ، وكان للعرب ـ وهم من أقدر الناس على الاقتباس ـ أن يستوردوا هذه المدنية برمتها ، وينقلوها إلى صحرائهم وحواضرهم ، وقد تغلَّبوا على الدولتين وامتلكوا مواردهما ووسائلهما ، ولكن منعهم من ذلك اعتقادهم أن مركزهم مركز الإمامة والسيادة ، ومركز التوجيه والإرشاد وأن الروم والفرس أمم مريضة مسلولة ، وسقامها هذه المدنية المترفة والحياة المزورة ، وقد كانت من أقوى أسباب هزيمتها وانكسارها ، وانهيار هاتين الإمبراطوريتين اللنين اقتسمتا العالم المتمدن المعمور ، فتجنبوا تقليدها في عاداتها وكمالياتها وتمسكوا بفروسيتهم العربية والحياة المتقشفة الجليدة ، ولم يقتبسوا من الروم والفرس وأهل الهند إلا المفيد الصالح ، كالصناعات والتجارات وعلوم الحكمة والطب ، وأساليب الحرب ، وبعض مرافق المدنية ، فالحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها فهو أحق بها وتجنبوا القشور مهما أمكن ـ مما هو ماثل في المدنية العجمية ـ مما يحذر منه قادتهم وعلماؤهم .

لقد اعتقد العرب أن دورهم في بناء المدنية وتكوينها دور الإعطاء

والإفاضة ، ودور التخطيط والتصميم ، ودور الابتكار والأصالة ، ودور الأستاذية والإشراف ، وقد ظلوا يمثلون هذا الدور إلى مدة طويلة حتى فقدوا مركزهم أخيراً في قيادة الركب الإنساني ، فكان من ذلك شقاء لهم وشقاء للإنسانية أعظم ، وتنزلوا إلى التقليد والاعتماد على الغير والاستيراد من الخارج ، وصاروا يعيشون في دائرة ضيقة من التفكير ومن الواقع ، وصاروا يفكرون لأنفسهم بعدما كانوا يفكرون للعالم كله ، وأقاموا حولهم سوراً من الدم واللغة والثقافة بعدما هدموا الأسوار القديمة ، وأخرجو الأمم منها ، تحلق في الفضاء الواسع وتجري في أرض الله الواسعة وأصبحوا يسبحون في برك وأنهار بعدما كانوا يسبحون في بحر لا ساحل له ، فهلمي أيتها الجزيرة إلى مكانك الأول من القيادة والتوجيه والتفكير في الإنسانية والاهتمام بشؤونها والجمع بين أسرها ، ورعاية قطعانها الضالة ، هداية البشرية بالرسالة الإسلامية العالمية التي نبعت منك وإليك تعود .

لقد شاءت سماحتكِ العربية وأريحيتكِ المعروفة في التاريخ أن تجودي بالنفط على العالم ، فكنت في ذلك السخية المحسنة المشكورة ولا شك أنها مساهمة غالية منك في بناء هذا الصرح الصناعي الكبير ، الذي يفتخر به العالم المعاصر ، وقد شهد الجوُّ والبرُّ بقيمة هذا النفط الذي يستخرج من أرضك ، ودانت له الطائرات والسيَّارات بالفضل والشكر ، فشكراً لك أيتها الجزيرة الكريمة العريقة في السماحة والسخاء من كل من ينتفع بهذه الوسائل وما أكثرهم في العالم .

ولكن فيك ما هو أغلى من هذا الذهب الأسود وأنفع للمدنية وأعود على الإنسانية بالخير والنفع العام ، هو الإيمان الذي نبع عينه من أرضك لأول مرة بعد قرون متطاولة ، فإذا كان هذا النفط تحفة الأرض إلى الأرض كان الإيمان الذي جاء به محمد ﷺ تحفة السماء إلى الأرض ، وفيك اتصلت السماء بالأرض لآخر مرة ، وقد انقطعت صلة الأرض بالسماء ، والأجسام بالروح والقلب ، والصناعة والحضارة بالإيمان والأخلاق ،

فلتتصل الأرض بالسماء والأجسام بالأرواح ، والقلوب والصناعة والحضارة بالإيمان والأخلاق مرة ثانية عن طريق الجزيرة العربية وعن طريق الوحي المحمدي ، وقد اشتدت حاجة الإنسانية إلى هذا الاتصال حتى أصبح العالم لهذا الانفصال المشؤوم ـ بين الأجسام والروح والقلب والصناعة والحضارة والإيمان والأخلاق ـ على شفا حفرة من النار وعلى وشك الانهيار .

إن كثيراً من محبيك يتمنون لك شخصية قوية مستقلة في كل ما تقتبسينه من علوم ومدنية ، وفي كل ما تتبنين من حضارة وصناعة وفي كل ما تقومين به من تعليم وتوجيه لجيلك الجديد ، وأن تفرغي ذلك كله في قالبك العربي الإسلامي الجميل ، فتخرجي بطراز جديد تتجلى فيه شخصيتك العبقرية ، وعقيدتك الإسلامية ، ونظرتك الخاصة إلى الحياة ، وفهمك الممتاز للمدنية ، ومهمتك المخلصة في العالم ، فذلك الطراز هو الذي سيقلده الشرق ، ويمجده الغرب ، والعالم لم يزل ـ ولا يزال ـ خاضعاً للاستقلال في الفكر والابتكار في البناء ، والاعتماد على الشخصية ، وإن قلت الوسائل وضاقت الموارد ، فكيف إذا كثرت الوسائل ووسعت الموارد ؟ وليكن كل قسم من أقسام مدنيتك وتنظيمك متميزاً عن مثله في بلاد لا دين لها ولا رسالة ، فأنت بلاد ـ والحمد لله ـ لها رسالة وليجر دمك في عروقك ولا يتجاوزها إلا بتناسب بين الاستيراد والتصدير ، فالمدنية والحكومات إنما تقوم على هذا التناسب .

وبعد فإني أعتقد أن الجزيرة العربية كلَّها ، في حساب الانتفاضة الإيمانية التي وجدت على بعثة الرسول الأعظم ﷺ ودعوته وجهاد أصحابه ، وقد أخرجتها هذه البعثة من الجمود والخمول إلى النشاط العالمي ، والعظمة الخالدة ، والسيادة الروحية ، وهي التي غرست حبها في القلوب والنفوس ، يسعون إليها على العيون والرؤوس ، ويأتون من كل فج عميق ، وهي التي منحتها الكتاب العزيز ، الذي حفظ لغتها من الضياع والدثور كما ضاعت لغات كثيرة ، وكان سبباً مباشراً في تولُّد هذه العلوم

الكثيرة ، وتكون هذه المكتبة الواسعة التي تعتز بها الثقافة الإسلامية العربية ، وهي التي نشرت لغتها في مشارق الأرض ومغاربها ، وفرضت دراستها والتضلع منها على كل من يحب أن يفقَه القرآن ويتفقَّه في الدين ، ولا تزال الثقافة العربية الإسلامية ، هي الثقافة العالمية التي تتمتع بالتقديس والاحترام الديني والعاطفة القوية في رقعة واسعة في العالم ، ولا تزال هذه الهداية مصدر انتفاضة جديدة لمن أرادها وسعى لها سعيها ، وأنت من أسرع الناس إلى معرفة الفضل وأبعدهم عن نكران الجميل وجحود الحقائق .

لقد تحدثت يا زهرة الصحراء على لسان العالم أخاطب الجزيرة العربية وأعاتبها ، وأشكو إليها بث الإنسانية وحزنها وآلامها ، ثم نقلت حديث الجزيرة إلى العالم معتذرة مجيبة مفصحة بليغة ، فكان حواراً (بين العالم وجزيرة العرب) أصغت إليه الآذان ، وأقبلت عليه القلوب ، وتحدثت إلى مصر فقلت : « اسمعي يا مصر » فلم تكن صيحة في واد ونفخة في رماد ، وتحدثت إلى سورية فقلت : « اسمعي يا سورية » فوجدت آذاناً صاغية وعقولًا واعية ، وهأنذا أتحدث إليك فأقول : « اسمعي يا زهرة الصحراء » وأرجو أن أحظى منك بكل تشجيع وتقدير ، وبكل اهتمام وتفكير .

***

اسمعي يا إيران

[قضى العلامة الندوي عشرة أيام في إيران حين زارها كرئيس لوفد رابطة العالم الإسلامي عام ١٤٩٣هـ ، وجمع خلال هذه الزيارة مشاهداته الدقيقة ، وانطباعاته الجميلة ، وملاحظاته الإيجابية الصريحة ، وتحدَّث عن التقريب بين المسلمين ، وملأ الهوة الواسعة بين أهل السنة والشيعة وعن دعائمها الضرورية وأساليبها الطبيعية الصحيحة ، وأشار إلى مواضع ضعف تحتاج إلى بناء وإصلاح ، وجوانب مريعة تستحق الإعجاب والثناء وذلك كله بأسلوب عالم حصيف الفكر ، ومؤرِّخ نزيه القلم ، وكاتب مرهف الحس ، وداعية سليم القلب ، مشرق الروح ، قوي العاطفة ، وهو يتحدّث في الخطاب إلى إخواننا الأشقاء في إيران ذلك البلد المسلم العريق فيقول « اسمعي يا إيران » إبلاغاً للرسالة ، واتباعاً للحجة ، وأداءً لأمانة الرسالة ، وواجب العلم والدين والدعوة] .

كانت زيارة إيران ـ يونان الشرق ومولد الجم الغفير من نوابغ الإسلام وعباقرته وأئمة الحديث والفقه وعلوم الحكمة والنحو ، والبلاغة والآداب العربية ـ أمنية قديمة كانت تراود النفس وتعاودها بين حين وآخر ، فقد عشنا في أطيافها وربيعها وحدائقها التي تغنَّى بها شعراؤها ، وأدبها الخصب وشعرها الرقيق ، وطبيعتها المرحة القلقة التي تجلت في مذاهبها المتطرفة ، وأفكارها الثائرة وفي تصوُّفها الولوع الحنون الذي كانت لإيران فيه الزعامة في العصر القديم ، ولكن لم تتحقق هذه الأمنية إلا في العهد الأخير ، حين قطع ركب الحياة أكثر مراحل السفر ، وغلب البحث عن الحقيقة على التفنن في الخيال ، ولعلَّ ذلك كان خيراً .

والفضل في هذه الزيارة التاريخية يرجع إلى رابطة العالم الإسلامي كما

يرجع في زيارة أفغانستان ، فهي صاحبة الفكرة في هذه الرحلة ، وكان لصيتها البعيد في العالم الإسلامي ومكانتها المرموقة في نفوس المسلمين لانتسابها إلى مهبط الوحي ومهبط الإسلام ومولد الرسول ﷺ ، والآمال الكبار التي يعلِّقها المسلمون بها فضل كبير في نجاح هذه الرحلة وما لقيه أعضاء الوفد من حفاوة بالغة من حكومة إيران الموقرة والشعب الإيراني المسلم والمنظمات الدينية والعلمية والشخصيات البارزة في هذا البلد الكبير .

وإن كان لرابطة العالم الإسلامي فضل في مشروع هذه الرحلة وتهيئة أسبابها ـ ولا شك في ذلك ـ فقد كان لرئاسة مجلس الأوقاف التي يشرف عليها معالي الدكتور منوجهر آزمون نائب رئيس وزراء إيران ورئيس هيئة الأوقاف الفضل الكبير في تيسير هذه الرحلة ووضع مخططها وبرامجها ، فإنه لما علم قصد الوفد الإيراني أبى إلا أن ينزل الوفد في ضيافة الحكومة ، وأن تكون رئاسة الأوقاف هي المضيفة الكريمة بالنيابة عنها ، وعنى عناية فائقة بتيسير مهمة الوفد وتمكنه من أداء رسالته ، وأن يحمل عن البلد والشعب فكرة واضحة كاملة وصورة مشرقة زاهية ، ويرى الوفد لزاماً عليه ، ومن قبيل الاعتراف بالواقع أن يشكر معاليه على هذه العاطفة الإسلامية النبيلة والأريحية الإيرانية المعروفة .

كانت المدة التي كان الوفد يقضيها في إيران ويزور في خلالها معالمها ، ومظاهر نشاطها الإسلامي وحركتها العلمية ثمانية أيام ، ولكن كاتب هذه السطور الذي رضع بلبان حب الأدب الفارسي ، شأن أبناء الأسر المسلمة قبل نصف قرن ، وعرف « سعدي » و « حافظ » في مقدمة من تعرف بهم من شعراء العالم وأدبائه ، أبدى رغبته في زيارة « شيراز » مدينة الشعر والسحر ، فأجاب معالي الدكتور إلى ذلك بكل سرور ، مضيفاً إليها مدينة « أصفهان » عاصمة الصفويين ومركز الفن الإيراني ، وهكذا صارت هذه المدة عشرة أيام ، بدأت من يوم الإثنين ٩ من جمادى الأولى ١٣٩٣هـ

الموافق ١١ من يونيه (١٩٧٣م)[١] وانتهت بيوم الأربعاء ١٨ من جمادى الأولى ١٣٩٣هـ الموافق ـ ١٥ من يونيه ١٩٧٣م ، وكان السفر صباح يوم الخميس١٨ من جمادى الأولى ١٣٩٣هـ ـ ١٦ من يونيه ١٩٧٣م من طهران إلى بيروت في طريقنا إلى جدة ، فقد قررنا أن تكون مكة نهاية المطاف في هذه الرحلة .

كانت هذه الأيام العشرة التاريخية التي قضاها الوفد في إيران حافلة بالزيارات واللقاءات ، والرحلات والتنقلات والأحاديث والمحاضرات ، وكان التنزل في « بارك هوتل » أحد فنادق العاصمة الكبرى .

وقد زار الوفد خلال هذه الأيام عدداً من الوزراء الكبار ، نخص بالذكر منهم دولة عباس هويدا رئيس الوزراء ومعالي الأستاذ كاظم زاده وزير التعليم العالي ، فضلاً عن معالي الدكتور آزمون الذي قابله الوفد عدة مرات مدة إقامته بطهران ، وكانت مقابلته يوم الثلاثاء صباحاً أول مقابلة تشرف بها الوفد ، وقد جلس معه طويلاً في جو من الإخاء والبساطة وعدم التكلُّف ، وتشعَّب الحديث وتناول جوانب إسلامية وعلمية وتاريخية ، وكانت مقابلته كذلك هي الأخيرة ، فقد أقام الدكتور حفلة عشاء فاخرة تكريماً لأعضاء الوفد في فندق (هلتن) ليلة الخميس ١٧ من جمادى الأولى حضرها عدد من الوزراء وكثير من العلماء وأعيان البلد ، وكان من بين العلماء الذين زارهم الوفد وجلس إليهم وتداول معهم الحديث في موضوعات دينية وعلمية ، أصحاب السماحة والفضيلة « آية الله العظمى »[٢] السيد محمد كاظم شريعة مداري . و « آية الله العظمى » الشيخ حبيب الله ميلاني ، و « آية الله » المرزا محمد خليل كمره آي ، و « آية الله » السيد حسن

---

(١) وكان في ٢١ من حرداد ١٣٥٢ بالتقويم الإيراني المنتشر في البلاد .

(٢) أصحاب الفضيلة العلماء في إيران طبقتان ، الطبقة الأولى هم الذين بلغوا الدرجة القصوى في التبحر العلمي والمكانة الدينية يلقبون بـ « آية الله العظمى » والذين يلونهم يُسمَّون بـ « آية الله » .

إمامي ، إمام مسجد شاه في طهران ، والأستاذ الكبير « آية الله » محمد تقي القمي ، ومن الشخصيات العلمية والأساتذة الكبار العلامة وحيدي المشرف على مسجد سپه سالار في طهران والدكتور محمد محمدي عميد كلية الإلهيات ، وشيخ الإسلام أستاذ الفقه الشافعي في كلية الإلهيات ، والدكتور عباس المهاجراني رئيس تحرير مجلة « الفكر الإسلامي » العربية الصادرة من طهران ، والدكتور سيد حسين نصر رئيس جامعة آرية مهر في طهران ، والكاتب الإسلامي الطائر الصيت ومؤلف كتب إسلامية قيمة باللغة الإنجليزية ، والأستاذ السيد هادي خسرو شاهي الكاتب الإسلامي المعروف ورئيس تحرير مجلة « هادي » العربية في دار التبليغ بـ « قم »[1] .

وكان من بين المدن التي زارها الوفد مدينة طهران عاصمة إيران ومدينة « قم » المركز العلمي الديني الأكبر في إيران ومشهد المركز الروحي الأكبر ومدينة أصفهان التي كانت عاصمة إيران لأطول مدة ، وفي أزهر العهود مدنية وفناً ، ومدينة شيراز درة إيران الشعرية والأدبية، وقد تجوَّل الوفد في أحياء هذه المدن القديمة والجديدة وشاهدها بنفسية المسلم المستطلع، وعين المؤرخ المعنيْ بالآثار، وذوق السائح المتنقل في البلاد والأمصار ، وكان في مشاهداته هذه إشباع لكل هذه المناحي وقد أعجب بالفن الرفيع ، والهندسة البارعة ، والنقش البديع ، والذوق الرقيق ، والمدنية الزاهية التي بلغت أوجها في عهد الصفويين وشاهد المصنوعات الوطنية والتحائف الفنية التي فاقت فيها إيران .

وكان من بين المشاهد التي زارها الوفد مسجد السيدة معصومة أخت الإمام علي الرضا بن موسى كاظم ، وفيه ضريحها الذي يقصده الإيرانيون من أنحاء بعيدة ويغص المسجد بهم ، ومشهد الإمام علي الرضا الذي هو

---

(١) لم تسنح للعلامة الندوي فرصة اللقاء بعدد كبير من الأساتذة الجامعيين والمثقفين بالثقافة العصرية المدنية ، لأنه حين زار إيران كان زمن الإجازة الصيفية في الجامعات والكليات .

أكبر مشهد ومزار في إيران كلها تشدُّ إليه الرحال ويؤمُّه الزوار من أقصى البلاد ولا ينقطع عنه الزائرون ولا تتوقف حركة السفر إليه في أي ساعة ليلاً ونهاراً .

ومن المساجد الأثرية التي زرناها مسجد سپه سالار في طهران الذي هو آية في الفن والهندسة والنقش والتلوين ، ومسجد شاه الذي هو المسجد الجامع في العاصمة ، ومسجد « كوهر » في المشهد ، ومسجد شاه عباس الصفوي ، ومسجد شيخ لطف الله ، ومسجد الجامع ومسجد چهارباغ كلها في أصفهان ، ومسجد وكيل في شيراز .

ومن المؤسسات والمعاهد التي زرناها كلية الإلهيات والمعارف الإسلامية في جامعة طهران ، ودار التبليغ الإسلامي في مدينة « قم » ومركز التقريب بين المذاهب الإسلامية في طهران .

أما الندوات والمحافل التي استقبل فيها الوفد ، وتكلم فيها أعضاؤه ، فمنها منزل العلامة شريعة مداري ، ودار التبليغ في « قم » وقد عقدت في هذه الدار حفلة تكريم كبيرة للوفد ، ألقي فيها محاضرات وأنشدت قصائد ، ومنزل العلاَّمة حبيب الله ميلاني في مشهد ، ألقيت فيه كلمة ترحيب للوفد ، وأجاب عنها عضو الوفد الأستاذ أحمد محمد جمال ، ومنزل العلامة مرزا محمد خليل كمرآي ، أقيمت فيه حفلة تكريم لطيفة ، واستقبل الوفد بهتافات حماسية وكلمات ترحيب رقيقة ، وأنشد نشيد إقبال الطائر الصيت الذي مطلعه « الهند لنا والعرب لنا » معرباً بقلم الأستاذ صاوي شعلان المصري ، ومترجماً إلى الفارسية بالشعر ، وتكلم في هذه الحفلة عضو الوفد الأستاذ أحمد محمد جمال وكاتب هذه السطور نقلاً من الشريط المسجل مع تنقيح وتهذيب وزيادة يسيرة وزار الوفد مركز دعوة التقريب بين المذاهب الإسلامية ، تكلَّم فيه الأستاذ الكبير آية الله محمد تقي القمي وكاتب هذه السطور ، وحضر لفيف من علماء البلد ورجال الثقافة والفكر .

ومن الآثار التاريخية التي زارها الوفد ضريح شاعر إيران الخالد

« فردوسي » صاحب الملحمة الفارسية المعروفة بـ « شاهنامة » التي حامت بها إيران في كل زمان ، وإليها يرد الفضل في تخليد أمجادها وإحياء لغتها الفارسية ، وإثارة الشعور القومي ، وقد عنيت حكومة إيران بهذا الضريح عناية عظيمة ، وأدَّت إلى الشاعر العظيم ضريبة الإجلال والإكبار ، وتوجته بأعظم رمز لتخليد الآثار ، وقد تجوَّلنا في « طوس » وهي الولاية القديمة الغنية بآثارها ورجالها ، وقد أنجبت نوابغ مثل حجة الإسلام محمد بن محمد بن محمد أبي حامد الغزالي ، والوزير الخير الشهير نظام الملك طوسي رئيس وزراء الإمبراطورية السلجوقية ، والشاعر العظيم « فردوسي » والحكيم الكبير نصير الدين الطوسي وغيرهم .

وقد هاجت هناك ذكريات تاريخية وتمثلنا أيامها الزاهرة يوم كانت مدرسة العلم ومربية الجيل ومأوى الفضل وكان طبيعياً ، ونحن نمشي في أطلالها وبين عرصاتها إذ ينتقل ذهننا إلى مفخرة الإسلام عبر القرون والأجيـال ، ونابغة النوابغ وأحد العقول الإسلامية الكبرى حجة الإسلام وحسنة الأيام الإمام أبي حامد الغزالي الذي لم يرزق أحد من بين علماء الإسلام ـ بعد مؤسسي المذاهب المعمول بها في العالم الإسلامي من القبول والشهرة وخلود الآثار العلمية ـ ما رزق هذا الإمام ، وسألنا عن مسكنه ومدفنه ومركز حركته العلمية التي أخذت من العالم الخراج ، وانحنى أمامها السرير والتاج ، فلم يكن الجواب مشجعاً ولا مسلياً ، مشى بنا الدليل في أراض مقفرة ، وأنقاض متراكمة ، ووقف بنا أمام بناء قديم يندب حظه ويشكو قسوة الزمان ، وقيل لنا إنها « هارونية » التي كان الخليفة العباسي هارون الرشيد يحبس فيها من تنزل عليه نقمته ، فلا يرى ضوء الشمس بعد ما يدخلها ، وقد وقع بيدنا كتاب ألفه أحد الأساتذة الإيرانيين الدكتور عيسى صديق أحد أساتذة جامعة طهران وقد أسماه « آرام كاه غزالي » يعني مرقد الغزالي ، فنَّد فيه هذه الشائعة وبيَّن أنها أسطورة لا تستند إلى التاريخ ، وقد بحث في هذا الكتاب الصغير عن ضريح الإمام الغزالي وموقع في طوس ،

واحتج بنصوص المستشرقين الأوربيين ، في مقدمتهم البروفيسور بوب الأميركي (Pope) والدكتور زويمر (Zwemer) ومن المؤرخين المسلمين تاج الدين السبكي من المتقدمين ، وآقاي علي أصغر حكمت من المتأخرين ، ووصل بكل ذلك إلى نتيجة أن قبر الغزالي بجوار هذه البناية العتيقة الأسطورية ، وحدانا الذوق التاريخي والاشتغال بآثار الغزالي والانتفاع بها إلى قبره ، فرأينا ضريحاً قد جدد حديثاً يقع عن يسار هذه البناية إذا استقبلها الواقف ، ولا كتابة عليه ولا لوحة وأخبرنا أن اللوحة لا تزال في جوف البناء ورأيناها فعلاً ، وقد انطمست كتابتها فلا تقرأ إلا بعض الكلمات بصعوبة ، وقد وقفنا خاشعين أمام عظمة الله تعالى ، وآمنا بأنه هو الحي الدائم وقرأنا قوله تعالى ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن : ٢٦ - ٢٧] .

ومن هذه الآثار التاريخية ضريح نادر أفشار شاه الذي غزا الهند في سنة ١٧٣٩م وفتح دهلي ، ووضع السيف في أهلها فما رفعه إلا بعد أن سالت دماء المسلمين غزيرة في شوارع دهلي ، وأدخل الذعر والخوف في قلوب أهل البلاد ، وطأطأ أمامه رأس الملك المغولي (حفيد الإمبراطور أورنك زيب عالمكير) محمد شاه ، واستولى على عرش الطاووس الذي صنعه شاهجهان ، وكان مرصعاً بالجواهر الكريمة فأخذه إلى إيران ، وكان لا شك من أكبر القادة العسكريين الذين نبغوا في أوائل القرن الثاني الهجري ، وقد عنيت مصلحة الآثار القديمة بإبراز هذا الأثر التاريخي ، وأحاطته بالكتابات والصور التي تلقي ضوءاً على عصامية هذا القائد ومغامراته ، وقد قصدت أحد متاحف طهران ، وهو « كاخ كلستان » شوقاً إلى مشاهدة عرش الطاووس ، وتحكم في الطبيعة الهندية ، والذوق التاريخي ، فعرفنا أنه جزِّىء وقطِّع وأودعت الجواهر النفيسة في بعض البنوك أو المتاحف الأثرية ، وصنع سرير آخر تقليداً له يحاكيه في الهندسة ولم نعلق عليه أهمية .

ولم نعرف أثراً لضريح الخليفة هارون الرشيد الذي دوى اسمه في الآفاق ، ونال من الشهرة حظاً لم ينله ملك من ملوك المسلمين أو من ملوك الشرق ، والذي قال لقطعة من سحاب مرت على رأسه : « أمطري حيث شئت فيأتيني خراجك » وقد أحاطت به هالة من الأساطير والروايات لم تحط بشخصية أخرى ، ومن الثابت في التاريخ أنه دفن في طوس ، ولا يستبعد أن يكون قبره بجوار سيدنا علي الرضا[١] ، ولكنه أصبح مغموراً مطموراً بجنب شخصيته الدينية وما تدين لها إيران من تعظيم وتقديس .

وفاتنا أن نزور نيسابور عاصمة السلاجقة والمدينة العلمية التاريخية العظيمة التي نهض منها علماء كبار وشعراء مفلقون ، وفيها قبر الشاعر المشهور عمر خيام وخاجا فريد الدين عطار الشاعر الصوفي ، وهي تبعد من أصفهان مئة وثلاثين كيلو متراً ولم يتسع وقتنا لزيارته .

وزرنا شيراز التي دخل اسمها في أدبنا الهندي وفي أمثال لغتنا ، وكان مثلنا ومثلها كما قال بشار بن برد :

. . . . والأذن تعشق قبل العين أحياناً

وبدأنا بزيارة قبر الشيخ مصلح الدين سعدي صاحب الحديقتين الزاهرتين الخالدتين « كلستان وبوستان »[٢] وحضرتنا ونحن واقفون على قبره بعض أبياته التي تمنى فيها دعاء رجل تهيجه عاطفة الحنان والرحمة فيدعو له ، ودعونا دعوة من نهل من موارده واقتطف من زهوره ، ثم زرنا

---

(١) كانت وفاة الرشيد سنة ١٩٣هـ بطوس ودفن بها ، وتوفي سيدنا علي الرضا سنة ٢٠٣هـ بمدينة طوس كذلك ، قال ابن خلكان : وصلى عليه المأمون ودفنه ملاصق قبر أبيه الرشيد ، واختلف في سبب موته فقيل : إنه كان موتاً طبيعياً ، وقيل بل كان مسموماً ، سمه بنو العباس لأن المأمون عهد إليه بالخلافة ، اقرأ التفصيل في كتب التاريخ ، واشتهرت طوس بالمشهد بسبب دفنه ، لعل ذلك في أيام الصفويين وهذه المنطقة كلها كانت تسمّى خراسان ولا يزال هذا الاسم باقياً في هذا العصر » .

(٢) معناهما الروضة والحديقة .

قبر خاجا حافظ من أكبر شعراء الحب والحنان ، والعاطفة والوجدان ، في عصره وبعد عصره .

وزرنا « تخت جمشيد » الذي هو من أقدم الآثار التاريخية في إيران وهي عاصمة « دارا » الأول ، يرجع تاريخها إلى ألفين وخمسمئة سنة ، وكانت قاعدة ملك كبير ، ومركز حضارة من أرقى حضارات العالم القديم ، وقد تجلى فيها الفن المعماري والهندسة البنائية ، وطريقة نقل الحجارة الضخمة الهائلة إلى الهضاب والمرتفعات ، وبناء العمد الشامخة ، في أروع مظاهرها ، يذكر السائح بأهرام مصر وقدرة المصريين القدماء على نقل الحجارة وتركيب بعضها ببعض ، وقد عقدت حكومة إيران في هذا المكان في العام الماضي مهرجاناً بمناسبة مرور ألفين وخمسمئة سنة على الإمبراطورية الإيرانية ، حضره رؤساء الجمهوريات وملوك العالم ووزراء الدول وممثلو البلاد ، وأنفقت عليه الملايين من النقود ، وتفاصيل هذا المهرجان لا تقل عن أساطير ألف ليلة وليلة في الغرابة ، والمحل يبعد عن شيراز بستين كيلو متراً تقريباً .

وقد ملكتني دهشة وأنا أجول في أطلال هذه المدينة البائدة فاستغرقت فيها ، وهي كيف استطاع العرب رعاء الشاء والغنم ، وسكان الوبر والمدر أن يفتحوا هذه البلاد العريقة في المدنية ، الغنية في الحضارة والعلم ، التي كانت هذه المدينة بعض آثارها ، والتي توارثت الملك والمدنية منذ آلاف من السنين وبلغت بهما شأواً بعيداً لا يتصوره العقل ، وكان الجواب ، قوة الإيمان والدعوة ، وفضل تعاليم الإسلام ، والبعد عن أدواء المدنية المصطنعة ، وحياة الرقة والنعومة .

وقبل أن أختم هذه الكلمة عن الاعتراف بفضل الشخصيات البارزة وذكر المشاهدات واللقاءات ذات الخطر والشأن ، أرى حقاً عليَّ وعلى الوفد أن أتوه بمرافقنا الفاضل الذي اختارته رئاسة الأوقاف ، ليكون مساعدنا في هذه الرحلة ، ودليلنا في زيارة المعالم ولقاء الأعلام ، فقد أثبت جدارته وحسن

اختيار معالي الدكتور آزمون ، وهو الدكتور أبو القاسم مشيري مدير الأوقاف العام في طهران ، وكان خير مرافق ، وخير صديق ، وخير زميل ، في هذه الرحلة ، وسعيد من يجد مثل هذا المرافق وهذا الدليل ، في رحلة يقوم بها في بلد جديد ، ونشكر كذلك سفارة المملكة العربية السعودية وسفيرها الموقَّر سعادة الأستاذ عرب هاشم على عنايتهما بتيسير مهمة الوفد والاحتفاء به ، وقد عقد سعادة السفير في منزله حفلة تكريم ومأدبة حضرها كبار العلماء وبعض الوزراء وأعيان البلد .

هذا استعراض مجمل لهذه الجولة التي كان لها صدى في القلوب والنفوس ، وحديث في المجالس والمحافل ، ولم تغفل الإذاعة والتلفزيون أن تلعب دورها في الإشادة بهذه الجولة ، التي كانت جديدة في نوعها ، ذات أهمية في نتائجها وآثارها ، ويستطيع القارىء المعني بالرحلات والجولات أن يأخذ عنه صورة مجملة ، وفكرة عمومية عن طبيعة هذه الرحلة ، وقيمتها التاريخية والأثرية والاجتماعية والعلمية .

ونريد بعدما انتهينا من هذه الرحلة التي لا بد منها ، أن نورد هنا بعض انطباعاتنا وملاحظاتنا في هذه الجولة ، التي لم تكن سياحة في بلد شرقي إسلامي فحسب ، ولا زيارة تحيَّة ومجاملة ، وإنما كانت أبعد مدى وأعمق أثراً من الرحلات التاريخية ، والزيارات الأثرية ، وتبادل التحيَّة بالتحيَّة ، وهنا نضطر إلى أن نسجل الجوانب المشرقة التي تفتح مجالًا واسعاً للآمال والأعمال ، وتبعث على السرور والتفاؤل ، ونسجل جوانب تثير الاستغراب ، وتطلب ـ إلى حد ما ـ سعة نظر ورحابة صدر ، وثقة بإخلاص القائل ، وحسن قصده ، ولاشك أن إخواننا الفضلاء في إيران متحلُّون بهذه الأخلاق العالية ، والسجايا الكريمة ، وأنهم يرحبون بهذه الصراحة ، وقد لمسنا آثارها في الأيام التي عشناها بينهم .

١ ـ إن أول شيء بهرنا وأثار فينا الاستغراب مع الإعجاب ، والحيرة مع المسرة ، هي قوة العاطفة الإسلامية ، وشدة رغبة إخواننا الإيرانيين على

اختلاف طبقاتهم وثقافاتهم في الوحدة الإسلامية ، والالتقاء على صعيد واحد من جوهر الإسلام ومبادئه الأولية ، واعترف هنا أننا لم نكن نتوقع هذه الموجة القوية من حب الوحدة ، ومد يد الأخوة والصداقة إلى سائر المسلمين في العالم ، وتكوين جهة موحَّدة ضد اللادينية التي تتحدى جميع الأديان ، وجميع القيم الخلقية ، والتي لا تميِّز بين سنِّي وشيعيّ ، وحنفيّ وشافعي ، ومحافظ ومجدد ، ومقلد ومجتهد ، إنه كان فاتحة الحديث وخاتمته في المجالس ، والهتاف الصارخ في الندوات والحفلات ، والرغبة الجامحة في النفوس والقلوب ، ولا شك أنها ظاهرة طيبة مباركة ، يجب على جميع المعنيين بقضية الإسلام والمسلمين أن يستثمروها ، ويستخدموها في صالح الإسلام ، الذي جنت عليه المغالاة ، وتخطى الحدود في الاختلاف جناية كبيرة ، والذي جر في منتصف القرن السابع الهجري على بغداد ـ مركز الخلافة وعاصمة الإسلام ـ الشقاء الأكبر ، وكان سبب كارثة قلَّما يوجد لها نظير في التاريخ[1] ومنع العثمانيين أن يفتحوا أوربا ، ويتوغلوا فيها إلى أقصى حد ، وأضعف الحكم الإسلامي في الهند ثم انتهى به إلى الانقراض التام .

٢ ـ والشيء الثاني ما لمسناه في هذه الزيارة من عناية زائدة بالآثار الإسلامية ، والتأليف في اللغة العربية ، وإحياء التراث الإسلامي ، ونشر آثار علماء الإسلام والاعتناء الزائد بالمصاحف الأثرية ، وتحليتها وتزيينها ، مما يدل على التقدير والإجلال والاحترام والاهتمام ، وقراءة القرآن ـ وأكثره من صوت القراء المصريين المسجل ـ في المشاهد والحفلات واحترامها ، وذلك يدل على الإيمان وإجلال القرآن .

٣ ـ ومنها الغيرة الدينية ومحاربة الحركات الهدَّامة الثائرة على

---

(١) اقرأ رثاء مصلح الدين سعدي الشاعر الإيراني على هذا الحادث ، وقصيدته الحزينة الدامية على نكبة المسلمين في ديوان شعره ، والتي مطلعها :

آسمان راحق بودكَرخون ببارد برزيين   بــرزوال أمــر مستعصــم أميــر المــؤمنيــن

الإسلام ، وفي مقدمتها البهائية التي منعت في إيران منعاً قانونياً ، واعتبر معتنقوها مارقين من الإسلام ، مع أنها ديانة ولدت في إيران ونشأت فيها ، وكذلك كراهة علماء إيران للديانة القاديانية ومحاربتهم لها ، أضف إلى ذلك عداءهم للإلحاد وللشيوعيَّة في بلادهم ، وهذه الغيرة جديرة بأن يغتبط عليها ، وتقلد إيران فيه الأقطار الإسلامية الأخرى ، وخاصة باكستان التي بينها وبين إيران صلات الصداقة متينة .

٤ ـ ومنها دماثة الخلق ورقة العاطفة وكرم الضيافة والتواضع الزائد الذي يلقاه به المسلم الإيراني أخاه الوافد من بلاد الإسلام ، وإشعاره بأنه بين إخوانه وأحبابه وفي بلده ، وكنا لا ننزل في بلد إلا ويستقبلنا رجال الحكومة وأعيان البلد ، وعلماؤه الكبار ، وقد رأينا كبار المسؤولين وبعض العلماء المشهورين واقفين على حافة الطريق في الشمس لاستقبالنا ، ونحن متوجهين إلى قم ، وقد تأخرنا في الوصول ، هذا ما شهدناه ولمسناه في هذه الزيارة القصيرة .

أما الجوانب التي نريد أن نلفت إليها نظر إخواننا الإيرانيين وخاصة العلماء الأفاضل والموجهين والقادة فهي كما يلي :

١ ـ من المعلوم أن المقصود الحقيقي من إرسال الرسل ، وإنزال الكتب بل من خلق السموات والأرض وخلق الإنسان ، هو عبادة الله وحده ، بجميع ما تحتوي عليه هذه الكلمة البليغة المعجزة ، من معاني الحب والطاعة ، والخضوع والخشوع ، والإخبات والإنابة ، والالتجاء والافتقار ، وإنما جاءت الرسل ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ ليربطوا الخلق بالخالق قلباً وقالباً ، ويأخذوا بنواصيهم ويطأطئوا رؤوسهم على عتبة عبوديته ، وتلك غاية أمانيهم ومنتهى سعادتهم ونجاحهم ، وفيها نعيم قلوبهم ولذة روحهم ، ولم يأتوا ليشغلوا العباد بنفوسهم ويقفوا حاجزاً بينهم وبين ربهم ، إنهم لم يأتوا لاستعباد الإنسان للإنسان ، أو لأسرة أو بيت ، أو سلالة ، أو عرق أو دم ، وإن كانت هي أسرتهم وبيتهم وأبناءهم ، إن

طبيعة تقديس الدماء والعروق ، والسلالات والأجيال ، وتأسيس الدول الكبيرة ، وإنشاء السيادات والزعامات للأبناء والأحفاد ، وتأمين مصالحهم ومركزهم في المستقبل ، ودعوة الناس إلى تمجيدهم وتقديسهم ، والتغني الدائم بامتيازاتهم ، وبكونهم فوق البشر أو مستوى العامة ، طبيعة تليق بالملوك الفاتحين والقادة الطامحين ، وطلاب الدنيا وعباد المادة ، قد عرفت في تاريخ الحكومات ، وفي تاريخ الأسر والبيوتات في الزمن القديم ، ولا تليق بالأنبياء والمرسلين ، ولا أبلغ من قوله تعالى :

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٧٩ ـ ٨٠] .

ولذلك كان النبي ﷺ حذراً شديد الحذر من كل ما يشغل الناس بالناس ، أو يقف حاجزاً بين العبد وربه ، أو يوجه عاطفة العبودية والإنابة ، أو التقديس والتمجيد إلى غير الله تعالى ، شخصاً كان أو أثراً أو معبداً أو مشهداً ، فقد صح أنه قال « اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد »(١) وقال : « لعنة الله على اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما صنعوا »(٢) وقال : « لا تجعلوا قبري عيداً »(٣) والأحاديث في ذلك كثيرة .

---

(١) رواه مالك مرسلاً في الموطأ عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار ، ورواه البزار عن زيد عن عطاء عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً .

(٢) حديث متفق عليه .

(٣) رواه أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه وهو مروي بلفظ « لا تتخذوا قبري عيداً » برواية أهل البيت عن علي بن الحسين عن أبيه عن جده رسول الله ﷺ ، روى الأول في المختارة وروى الثاني سعيد بن منصور في سننه، والعيد اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد عائداً إما بعود السنة أو بعود الأسبوع أو الشهر ونحو ذلك .

وذلك كله مخافة أن تتعلق القلوب وتتجه النفوس إلى غير الله ، وينشأ وينمو ذلك على حساب الإقبال على الله تعالى والإنابة إليه ، وعلى حساب البيوت التي ﴿ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [النور : ٣٦ ـ ٣٧] وقد أثبتت تجربة الأمم السابقة أنه ما فتنت أمة بالمشاهد والضرائح والآثار والأعياد ، إلا شغلت عن المناسك والمساجد ، وإقامة الجماعات فيها ، والعكوف فيها والفزع إليها وإلى الصلاة إذا حزبها أمر أو نزل بها حدث(١) .

وقد لاحظنا مدة إقامتنا القصيرة في إيران أن المشاهد أكثر عمراناً وازدحاماً ، والنفوس أعلق بها من المساجد ، فإذا دخل غريب في مشهد سيدنا علي الرضا لم يشعر إلا وأنه داخل في الحرم ، وهو غاص بالحجيج ، مدوٍّ بالبكاء والضجيج مكتظ بالرجال والنساء ، مزخرف بأفخر الزخارف والزينات ، قد تدفقت إليه ثروة الأثرياء وأموال الأغنياء وتبرعات المتوسطين والفقراء ، فلا يكاد يفرق بينه وبين الحرم المكي والمسجد النبوي ، ويرى أقل من ذلك في مدفن السيدة معصومة بقم .

أما المساجد ـ وإيران من أغنى بلاد الله في كثرتها وسعتها وفخامتها وبعض مساجدها لا يوجد لها نظير في الأقطار الإسلامية ـ فلا يرى فيها هذا الزحام ، وهذا الحماس الديني والاندفاع العاطفي ، بل إن كثيراً منها تشكو قلة المصلين وزهد القاصدين ، هذا مع علمنا بما في المذهب الجعفري من أحكام خاصة عن الجمع بين الصلاتين وشروط الإمام الدقيقة ، فقد كان من الممكن أن تكون المساجد والجوامع رغم ذلك أكثر حظاً من العمارة والحيوية والأنس والتلاوة ، والذكر مما هي الآن ، ولاشك أن علماء إيران الأفاضل وأهل الغيرة الدينية يولون هذه النقطة اهتمامهم الخاص حتى

---

(١) روي عن النبي ﷺ أنه كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة .

لا يسوغ لزائر أن يشعر بهذا الفرق الواسع بين المساجد والمشاهد[١] .

ومن آثار هذا الهيام ـ الذي قد تخطى الحدود ـ بكل ما يتصل بأئمة أهل البيت انتشار صورهم ، بل وجود صورة النبي ﷺ وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب بكثرة في المساجد والبيوت ، وقد رأينا ذلك وعز علينا في مسجد سپه سالار ، وفي بعض المساجد والبيوت ، ولا شك أن ذلك من باب الذرائع إلى الشرك ، وقد تورَّطت الأمم السابقة بتصوير الصالحين والعباد منهم في الشرك الجلي وعبادة الأصنام والتماثيل ، أعاذ الله الأمة الإسلامية وحماها من هذا الخطر الكبير[٢] .

---

(١) ومن قبيل الاعتراف بالواقع والشهادة بالحق ، أن فتنة الضرائح والمشاهد وشد الرحال إليها من أنحاء بعيدة والاجتماع عليها سنوياً مما يخاف منه أن يدخل تحت نهي « لا تتخذوا قبري عيداً » والأعمال الشركية منتشرة عند جهلاء أهل السنة في مصر وفي شبه القارة الهندية ، لا يمكن إنكارها ، ولكن مما لا شك فيه أن علماء أهل السنة الراسخين في العلم ، والمبينين للحق لم يزالوا من عهد السلف إلى عهد الخلف ينكرون على ذلك أشد الإنكار ويحذرون الناس منه أعظم تحذير ، ويتعرضون للعامة ولا يخافون في الله لومة لائم ، ولا يخل من هؤلاء المصلحين قرن من القرون ولا بلد من بلاد الإسلام ، ولا يزال العلماء قائمين بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والدعوة إلى التوحيد ، من غير مداهنة ومحاباة ، وكتب المذاهب الأربعة مملوءة بالإنكار على منكرات القبور وبدعها ، فهل وجد في إخواننا الشيعة دعاة ومصلحون يُنكرون على الغلو في المشاهد والضرائح ويدعون الناس إلى الدين الخالص ؟ إن علمنا بتاريخ الإصلاح والتجديد لعلماء الشيعة ضئيل فننتظر من إخواننا الأفاضل الإفادة في هذا الموضوع .

(٢) في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور فقال : « أولئك إن مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله » وذكر ابن هشام في سيرته أن رسول الله ﷺ دخل البيت يوم الفتح فرأى فيه صور الملائكة وغيرهم ورأى إبراهيم عليه السلام مصوراً في يده الأزلام إلى أن قال : « ثم أمر بتلك الصور كلها فطمست » (انظر سيرة ابن هشام الجزء الرابع ص٤١٣) .

٢ ـ إننا شعرنا في كل مجتمع ينتمي إلى الطريقة الإمامية أن الصلة العاطفية ، والحماس الداخلي في حب أهل البيت ، وتعظيم الأئمة ـ الذين كانوا أئمة الهدى ومصابيح الدجى ولا يشك في ذلك مسلم ـ كاد يشغل كل فراغ في النفس والعاطفة والعقل والضمير ، ونخشى أن يكون قد أخذ الشيء الكثير من حق النبوَّة التي هي مصدر كل خير وسعادة ومن شخصية الرسول الأعظم الذي نال به أهل البيت ، الشرف ، واستحقوا الحب والتعظيم ، وإنه نما وازدهر على حساب الصلة العميقة التي يجب أن تكون بين المسلم وبين نبيه ﷺ .

وقد ظهر ذلك الأثر في الشعر الذي قاله شعراء إيران في مدح النبي ﷺ ، وفيما قالوه في مناقب أهل البيت ، وخاصة في مناقب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، وسيدنا حسين بن علي ، فيفوق الثاني الأول في قوة العاطفة والتعبير عن القلب ، والقدرة الشعرية ، وفيض الخاطر وتدفق القريحة ، لمسنا هذا الفرق في الشعر الذي قاله شعراء أردو في الهند من إخواننا الجعفريين ، والشعر الذي قالوه في المديح النبوي ، ولمسناه في الشعر الفارسي ، ورأينا هذا الفرق في الكتب التي ألفت في السيرة النبوية وفي مناقب أهل البيت كماً وكيفاً ، ورأيناه في الفرق الواسع بين العناية بالمشاهد ، والعناية بالمساجد ، وبين الشوق إلى السفر إلى النجف وكربلاء « والعتبات العاليات » والسفر إلى الحرمين الشريفين[1] .

إني أعترف بأنه لا يخلو من ردِّ فعل لما وقع من بعض علماء أهل السنة ، والمتحمسين من هذه الفرقة من التقصير في التنويه بفضل أهل البيت وما لهم من حقوق على المسلمين ، ولكنه أكثر من ذلك ، وعلى كل فقد

---

(١) ولا شك أن هناك تغييراً ملموساً في العناية بأداء فريضة الحج عند إخواننا الشيعة خصوصاً في إيران ، فقد تضخم عدد القاصدين إلى الحج من إيران في الأعوام الأخيرة ، ولا يزال في ازدياد ونموٍّ ، وهذا فضلاً عن تنظيم حركة الحج الذي فاق فيه إخواننا الإيرانيون على أكثر البلاد الإسلامية .

اتجه تيار الحب والحماسة الدينية ، والعاطفة الفياضة إلى هذا المركز الروحي ، وأحاطت به هالات التقديس ، وأهيلت عليه نعوت وصفات ، أخشى أن تكون قد جعلت الإمامة منافية للنبوة أو مشاركة لها في كثير من الصفات ، واندفع بذلك تيار الحياة كلها إلى مركز يبدو وينمو بجوار المركز الأصيل الذي هو نبوة خاتم النبيين ، وأشرف الأنبياء والمرسلين ، وأثر ذلك في الأدب والشعر والتفكير والعمل ، ولا نريد أن نطيل في ذلك ، فإذا تلمس إخواننا المنصفون قلوبهم وخفقاتها واستجابتها وانفعالاتها ، رأوا أن هذه الملاحظة إن لم تكن ما يوافقون عليه مئة في المئة ، فإنها تدعوهم إلى التفكير من جديد ، ولا شك أن أئمة أهل البيت كانوا خلفاء الرسول من غير نزاع في الدعوة إلى التوحيد والدين الخالص ، أعداء لما يصرف الناس عن الله ويشغلهم بغيره ، أشد الناس غيرة على الدين ، الذي جاء به جدهم وسيدهم ونبيهم ﷺ ، فهم لا يرتضون شيئاً يضعف صلة العبد بالرب ، ويشغل أحداً من الخلق بالخلق ، هذا ثابت بالبداهة وما تواتر عنهم من الغيرة على الإسلام والزهد في الدنيا ، والعزوف عن كل مظاهر العظمة الزائفة ، وما استفاض عنهم من الفرار عن الخلق إلى الحق ، والاشتغال بنشر العلم النافع والدعوة إلى الله .

ولا بد للتقريب بين المسلمين وملء الهوة الشاسعة الواقعة بين أهل السنة والشيعة ، أن يوجه هذا التيار إلى النبوة التي هي ملتقى كل مسلم ، والشخصية التي نبعت منها هذه العيون الدافقة ، وخرجت هذه الخيوط الذهبية ، التي أضاءت العالم كله ، إنه عمل تجديدي عظيم يحتاج إلى عماليق في العلم والفكر ، وقوة الإرادة وعلو الهمة والعلم الراسخ والفكر الثاقب ، إنه إذا تم هذا العمل أحدث انقلاباً لا يوجد له نظير في تاريخ الانقلابات الفكرية والتجديد الإسلامي ، وهو الأساس السليم المتين الذي تقوم عليه الوحدة الإسلامية الفطرية الحقيقية .

٣ ـ يجب أن يتغير نظر إخواننا الجعفريين ـ إذا أرادوا التقريب بين

المذاهب وجمع شمل المسلمين وتصافي القلوب ـ إلى صحابة الرسول ﷺ وأزواجه أمهات المؤمنين ، فلا يقوم تقارب حقيقي إلَّا بالاحترام المتبادل للشخصيات الحبيبة المحترمة بين الأشخاص أو الفئات ، ولا يعقل أن يتواد اثنان ويتصافيا ويتعاونا على عمل بإخلاص وحماس ، وأحدهما يذكر من يعتقد فيه صاحبه الخير والفضل ، أو يدين له بحب وولاء بسوء ، وينسب إليه الطامات ويتقرب إلى الله بالذم والتشنيع عليه ، وكلنا جرب ذلك ، وذاق مرارته ولذعه في حق آبائه وشيوخه وأساتذته ، ويفديهم بمهجته وروحه ، ويرى لهم الفضل في نصرة نبيه ، ونشر الإسلام إلى أقصى حدود العالم ، والجهاد في سبيله وحسن البلاء في الدعوة إلى الله ، والزهد في الدنيا والتقشف في الحياة ، والإيثار على النفس .

وبصرف النظر عن هذا الخطاب العاطفي ، فإن لهذا الموضوع قيمة علمية وأهمية دعوية ، فقد اعتاد الناس في كل زمان أن يقيسوا صدق الدعوة ، وفضل التعاليم التي يدعى إليها بكثرة ما أبرزته هذه الدعوة من نماذج رائعة ، وأمثلة كاملة ، وبفضل ذلك الرعيل الذي ربته هذه الدعوة ، وأنشأته هذه التعاليم ، وبقدر النجاح الذي لقيه صاحب الدعوة في دعوته وتربيته ، وهذا هو مقياس المعلمين والمربين والقادة والموجهين والحذاق في الصناعات والماهرين في كل عصر فإذا كان نتاجهم كثيراً ونجاحهم كبيراً في تخريجهم وتربيتهم ، سلمت مهارتهم في فنونهم واختصاصاتهم ، وسلمت لهم الزعامة والإمامة والتفوُّق والتقدُّم ، وإذا كان نتاجهم ضئيلاً ونجاحهم قليلاً ، أو ضاعت جهودهم في تلاميذهم وخريجيهم في وقت قريب ، وأحبطوا مساعي أساتذتهم بعد أن فارقوا الدنيا ، وزال أثر تربيتهم سريعاً ، اعتبر هؤلاء الأساتذة والمربون فاشلين في مهمتهم ، مخفقين في تربيتهم ، وذلك يضعف تأثير الدعوة وقيمتها إلى هذه التعاليم ، وإلى الإيمان بعظمة هذا الداعي أو المربي وعبقريته ، ويقف حاجزاً بين هذه الدعوة وبين دخول الناس فيها والثقة بها ، ولهم أن يتساءلوا : ما أملنا في

هذه الدعوة وتأثيرها وتزكيتها للنفوس والوصول بها من حضيض الحيوانية إلى ذروة الإنسانية ، ولم تحدث هذه الدعوة على يد داعيها الأكبر ، وفي زمن أوجها أثراً عميقاً خالداً ، ولم يثبت من آمن بها أوفياء أمناء لها في عصرها الأول ، ولم يبق على هذه الجادة التي تركهم عليها نبيهم إلا بضعة رجال ، فمن مطالب الدعوة الإسلامية ، ومن الإنصاف لشخصية الرسول ﷺ وسيرته وتاريخه ، وإنارة لها في عيون الناقدين أن نعرف للصحابة فضلهم ونثبت عظمتهم وإخلاصهم ووفاءهم وتوادهم وتناصرهم على الحق ، وأن نعرض على العالم صفحة بيضاء مشرقة من هذا التاريخ الرائع ، وإن ما روى عنهم من هنات أو زلات فهي كنقطة سوداء في ملاءة بيضاء ، وهذا ما يقرره القرآن وتقرره الأحاديث المستفيضة ، والتاريخ الموثوق به ، ويقرره المنطق المستقيم ، والعقل السليم ، وقد مدح القرآن الكريم من نهج هذا المنهج في سلفه الصالح ، وفي السابقين الأولين فقال :

﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر : ١٠] ، وقد عرفت الأمم السابقة بحب حواري رسلهم وأصحابهم ، وإيثارهم على غيرهم ، فاعتقدت أنهم كانوا خيار خلق الله ، ونحن أولى بذلك منهم جميعاً ، فكان نبينا أعظم منهم نجاحاً ، وأكثر منهم تأثيراً بتصريح من القرآن ، وقد قال الله تعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾ [الجمعة : ٢] ، وقال : ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴾ [الفتح : ٢٨] .

إننا إذا أردنا التقريب بين المذاهب حقاً ، وكنا جادين في ذلك وجب أن يكون ذلك على أساس سليم فطري ، وكل محاولة لهذا التقريب من غير هذا التغيير النفسي محاولة غير ناجحة وغير طبيعية ، إنني قلت في مجلس

الأستاذ الكبير العلامة محمد تقي القمي الذي يدعو إلى هذا التقريب منذ ثلاثين سنة أو أكثر « إن التصفيق ـ كما يقول المثل العامي عندنا في الهند ـ لا يكون بيد واحدة ، إنه لا يكون إلا بيدين مخلصتين عازمتين جادتين ، وإذا كان في إحداهما تراخ أو استرخاء لم يتم التصفيق » وقلت كذلك : إن التقريب ليس بشيء صناعي ميكانيكي ، إنه عمل القلب قبل أن يكون عمل اللسان ، وإنه قضية الداخل قبل أن يكون قضية الخارج ، إنه لم تكتشف إلى الآن مادة غرائية تلصق بها القلوب كما تلصق الأوراق ، فيجب أن ينبع هذا من القلب ، ويفيض حتى تشعر القلوب بقوته وحرارته » ولا بد لذلك من تفاهم وتنازل وتبادل ، فإذا تهيأت النفوس لذلك ، واستجابت له القلوب ، كان فيضاناً من الحب والثقة ، لا يقف في طريقه شيء ، والحب يقهر كل ما يقع في طريقه من عداء وبغض ، ويجرف .

٤ ـ وهنا وقفة قصيرة وأخيرة عند ضرورة زيادة العناية بالقرآن الكريم ، إن إخواننا الإيرانيين لا شك يحبون القرآن ويجلُّونه ، ويعتنون به اعتناءً كبيراً قد تجلى في كتابة المصاحف بأجمل الخطوط والنقوش ، من أقدم العصور ، والاحتفاظ بهذه المصاحف في المكتبات والمتاحف ، والافتخار بها بحق وجدارة ، وطبع المصحف الكريم طبعاً دقيقاً أنيقاً ، لا يقل عن بلد آخر ، وقد عني كثير من علماء إيران القدامى ، والمحدثين بتفسير القرآن وأثرت عنهم كتب جليلة اشتهر عدد منها في الهند وغيرها .

ولكنني أشعر بحاجة إلى عناية أكثر من هذه العناية وأعمق منها ، إنني أعني به التذوق للقرآن ، والتضلع منه ، والاهتمام الزائد الذي يظهر في كثرة التلاوة وكثرة الحفاظ المتقنين ، وإيثاره على كل شيء حتى يتغلب ذوق القرآن على كل ذوق ، وأن يكون هو سدرة المنتهى والأفق الأعلى في العلم والأدب والعقيدة والعمل والمنهج والسلوك .

ولا شك أن إخواننا الفضلاء وقادة التفكير في إيران الحبيب يشعرون بهذه الحقائق أو بعضها ، ويشعرون بالضرورة الملحة إلى إبرازها

وتقويتها ، إنه عمل تجديدي عملاق لا ينوء به إلا العماليق الذين يخاطرون بمركزهم العلمي والاحترام الذي يتمتعون به ويعرضون حياتهم للخطر ، ولكن السرور الذي يحصل بهذا النجاح لا يعدله سرور ، وإن الشرف الذي يسجله التاريخ لهم لا يعدله شرف ، إن إزالة الأنقاض التاريخية والركام الفكري والتقليدي ، الذي تراكم وتصلَّب ، ونفض الغبار الذي طرأ على جوهر الإسلام النقي ولُجينه الصافي ، وإعادة الدين إلى ما كان عليه في عصر النبوة ، ليس بالخطب اليسير والعمل الهيِّن ، إنه أكبر جهاد وأعظم تجديد ، وليست دعوة القرآن مختصة بالأديان الأخرى ، والأمم غير الإسلامية ، بل هي موجهة إلى فرق الأمة الإسلامية وطوائفها إلى آخر الأبد ﴿ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران : ٦٤] .

وفي الأخير أؤكد لإخواننا الفضلاء أنه لم تصدر هذه السطور إلا من إخلاص ، وحسن قصد ، وشعور بالأمانة ، وحرص على الوحدة الإسلامية ، ومعذرتي إذا وجدوا في هذه السطور فكرة لا يوافقون عليها أو تصويراً للواقع يرون فيه إفراطاً وتفريطاً ، أو تعبيراً لا يرتضونه ، فكل بشر يخطىء ويصيب ، والعصمة لله .

وأعود فأشكر إخواننا الإيرانيين حكومة وشعباً على الروح الطيبة الخفيفة ، التي قابلوا بها الوفد ، والخلق الإسلامي الكريم ، والضيافة الكريمة التي لقوه بها ، وأرجو أن تتبادل الشعوب الإسلامية والبلاد الإسلامية الوفود ، والبعثات ، والزيارات واللقاءات ، حتى يعرف بعضنا محاسن بعض ، ويزول سوء التفاهم وتتفتح القلوب وتتلقح الأفكار .

والله الموفق للسداد وهو الهادي إلى سبيل الرشاد .

* * *

اسمعوها مني صريحةً أيها العرب !!

لو كانت أمة على وجه الأرض تستحق مني أكبر تقدير وأعظم إعجاب وإكبار ، لكان العرب من غير نزاع .

ولو كانت نفسي تدفعني إلى المجاملة مع أمة من الأمم وتزينها لي لكانت أمتي العربية العظيمة .

وعندي مما أمدح به هذه الأمة العربية العظيمة بحق لكثير وواسع ، وعندي مما أرضي به نفوس هذه الأمة وأسماعها ، وأرضي به عاطفتي كعضو من أعضاء هذه الأسرة العظيمة الكريمة لكثير وكثير ، وكل ذلك مما يصدقه العلم والواقع ، ويقول العالم : صدقت ، ويقول التاريخ : عدلت وبررت .

ولكني أعتبر هذهِ المجاملة في هذه المناسبة جريمة خلقية ، وأعتبرها خيانة عظيمة في حق هذه الأمة التي أدين لها في الدين والأخلاق والإنسانية والشرف ، ويدين لها العالم والإنسانية في حياتها الجديدة وفي عقيدتها وخلقها ، وليست أمة أحق بالأمانة وأحق بالصراحة وأحق بالنصح من هذه الأمة التي مثلت الأمانة في عهد سادت فيه الخيانة ، وصارحَتْ في فترة طغت فيها المجاملات وصدقَتْ في دَوْر فشا فيه الكذب ، ونصحَتْ في ساعة انتشر فيها الغش والخديعة ، فمن أحق بهذه الأخلاق العالية ، والمعاني السامية من هذه الأمة ؟ .

ولكن من ينصح هذه الأمة ومن يصارحها ومن يصدقها ؟ والزمن زمن السياسة وزمن تبادل المنافع والمصالح ، وزمن الاستغلال وكل ذلك يقوم ـ أو يعتقد أنه يقوم ـ على المجاملات وإرضاء العواطف ، وإطراء الحليف والزميل ، وتخدير الأعصاب وعلى الغش والخديعة ، ويقوم على مدح

القوميات وعلى مدح الحضارات القديمة التي تنتسب إليها الشعوب اليوم ، وعلى الموافقة في خير وشر ورشد وغيّ ما لم تمس مصالح الأمة الأخرى السياسية ومنافعها الاقتصادية .

ولكن عقيدتي وديني الذي اؤمن به وأدين ، يفرض علي أن أكون صادقاً صريحاً ، وصلتي بهذه الأمة ـ الدينية والنسبية والثقافية ـ تلزمني بالصدق والصراحة والوفاء والأمانة ، ثم اقتناعي بأن العرب الأمة المختارة لحمل رسالة الإسلام قد كتبت لهم الوصاية على العالم ما داموا يدينون بهذا الدين الذي جاء به محمد ﷺ ، وعلمي بأن هذه الوصاية لم تحوَّل عنهم بعد ، ولم تبرز أمة على منصة العالم تخلف هذه الأمة وتضطلع بالإمامة ، ولكني أعرف أن الزمان زمان تحول والساعة ساعة الانتقال ، كالساعة التي شهد فيها العالم أكبر تحول في التاريخ وفي جدود الأمم ، ساعة مرت في منتصف القرن السادس المسيحي تحولت فيها الإمامة وتحول فيها منصب الهداية من بني إسرائيل ـ الأذكياء المثقفين أصحاب الحضارة والعلوم والقرائح والمواهب ـ إلى بني إسماعيل أو العرب ـ الأمة التي تغلب عليها الأمية والبساطة والفقر والاعتزال عن العالم ـ والله أعلم حيث يجعل رسالته ، فكان أكبر تحول شهده التاريخ الجديد ، وكان لهذا الحادث تأثير في مصير الأمم وأوضاع العالم واتجاه الإنسانية ، لم يكن لحادث سياسي أو تحول اجتماعي أو ثورة أخرى .

إنني لا أخاف أن يعود هذا المنصب إلى بني إسرائيل مرة أخرى ، فليس هنالك ما يدل على ذلك ، وبنو إسرائيل في شغل عنه لا شأن لهم بالعالم وما يعانيه من أزمة روحية ودينية وخلقية ، أسسوا حياتهم الجديدة ودولتهم الوليدة على المادة والمعدة والتنظيم الصناعي والاقتصادي ، وجمعوا بين مبادىء كارل ماركس ـ الذي نبغ فيهم ونهض منهم ـ ووصايا ميكافيلي ، وحملوا معهم من أوروبا إلى وطن اليهود ثمرات الحضارة الجديدة المادية اليانعة ، وحملوا معهم عصارتها وخلاصتها وشرورها

وخبائثها ، فهم من أبعد الشعوب من أن تسند إليهم هداية الأمم والوصاية على العالم ، ومن أن يؤمل فيهم النهوض برسالة الأنبياء الذين ينتسبون إليهم كثيراً ، ويتبجحون بهم كثيراً ، ومن أبعد الناس أن ننتظر منهم الثورة على الفساد الذي ظهر في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ومن أن يحملوا إلى الغرب رسالة الأنبياء والحياة الروحية والدعوة إلى الوحدة الإنسانية والفكرة الآفاقية والعالمية ، وأن يجاهدوا في سبيلهما ويتفانوا لأجلهما .

ولكن ليس العالم كله بني إسرائيل ، وهم حفنة من البشر وقطعة صغيرة من الأرض ، قد يفاجىء العالم شعب آخر أو بلد آخر لم يكن في الحساب كما فاجأ العرب العالم القديم .

وإن هذا التحوُّل يكون من غير نبوَّة جديدة ، فليس في النبوة المحمدية وفي تعاليمها وفي شرائعها ما يوجب التحول ، إنها دائمة خالدة ، إنها حية باقية ، إنها سائرة مع الزمن بل سابقة للزمن ، إنه سيكون تحوُّلًا في حملة هذه الرسالة وفي حُماة هذه الرسالة ، وهي حاجة الإنسانية ونداء الوقت .

والذي يطمعني في هذه الكلمة ، ويغريني بها هو حبي وحرصي على أن يستعيد العرب مكانتهم العالمية ، ويتسلموا هذه القيادة المباركة التي يقول الله عن حملتها :

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : ٢٤] .

وأن يتحولوا عن المعسكر الذي يقول الله عن قادته وزعمائه :

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ [القصص : ٤١ ـ ٤٢] .

بل يثوروا عليه ويعارضوه ويحاربوه وينادوا بأعلى صوتهم :

﴿ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة : ٤] .

نادى بها جدهم إبراهيم في عصره :

﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الزخرف : ٢٨] .

إن لي كلمة اليوم مع إخواني العرب الذين يؤمنون بالله ورسوله ويؤمنون بهذا الدين ، ولي كلمة أخرى مع الذين يؤمنون بالعروبة وبالأمة العربية وحدها ، وكلتا الكلمتين صريحة وصادقة صدرت عن إخلاص وحب ونصح .

إن كلمتي مع إخواني المؤمنين بالإسلام واضحة جداً ، وإن خطبي معهم يسير جداً ، اسمحوا لي أيها الإخوان أن أردِّد لكم الكلمة النبوية المدوِّية التي خاطب بها رسول الله الأنصار يوم حنين وسجلها التاريخ بنصها وفصها : « ألم آتكم ضلاَّلاً فهداكم الله بي وعالة فأغناكم الله بي ، وأعداءً فألف بين قلوبكم » أيستطيع التاريخ العربي ـ وهو الصادق الأمين ـ أن يشك في صدق هذه الكلمة أو أن يشك في حرف من حروفها أو نقطة من نقطها ، لو كان هنالك مساغ للشك أو مجال للجدال لسارع إليه رجال عرفوا بالشجاعة والصدق ، ولكنهم قالوا : صدقت ، لله ورسوله المن والفضل ، وقال التاريخ : صدقت ، لله ورسوله المن والفضل .

ألم تكونوا ضلاَّلاً باتفاق العقلاء والمنصفين منكم ، ألم تشهدوا على نفوسكم بالضلال مراراً وفي مناسبات كانت أحق بالفخر والمباهاة ، ونفي الاتهامات والشائعات ، إن كانت مجرد اتهامات وشائعات ، أما شهد به جعفر في مجلس النجاشي ، وشهد به خالد أمام قادة الروم ، وشهد به المغيرة بن شعبة ، وربعي بن عامر في مجلس رستم ويزدجرد .

وأي ضلال بالله أعظم من عبادة الأوثان في العقيدة والدين وعبادة الشهوات في الأخلاق ، ووأد البنات في الاجتماع . .

ألم تكونوا عالة تجدون من الأقوات والأكسية النزر اليسير ، قد استبد بأفضلها وأكثرها وألينها الروم والفرس ، ألم يقل لكم يزدجرد يوم تقدمتم إلى عاصمته تتحدونها وتتهددونها بقوة إيمانكم ودينكم الجديد : « وإن كان الجهد دهاكم فرضنا لكم قوتاً إلى خصبكم ، وأكرمنا وجوهكم ، وكسوناكم ، وملكنا عليكم ملكاً يرفق بكم » فلم يكذبه أحد من رسلكم ، والعرب أسرع الناس إلى تصديق الواقع والاعتراف بالحق ، وتكذيب الباطل ونفي الافتراء وأجرؤهم على الملوك والأمراء .

ألم تكونوا أعداء بأسكم بينكم شديد وقلوبكم شتى ، والقبائل دائماً في حرب دائمة أو هدنة عارضة ، وقد شهد التاريخ على أرضكم أطول حروب وأشأمها لأهلها في تلك البيئة المحدودة ومن يستطيع أن ينسى حرب البسوس وداحس والغبراء وما يوم حليمة بسرّ !

ألا لا يشكَّن أحد في نزعتي ولا يرميني أحد بالشعوبية وحمية الجاهلية ، فإني لا أقل عن أكبر عربي يعيش في العواصم العربية في عربيتي ونسبي الصريح المتصل ، وحبي للعرب وتضلعي من ثقافتهم وعلومهم وآدابهم ولغتهم ، وليس أحد من إخواني العرب الأقحاح أولى بالاعتزاز بالعربية مني ، وأوفر نصيباً فيها مني ، ولكن الإسلام أفضل من كل نسب وأقوى من كل عصبية .

ثم ماذا كان ؟ اسألوا التاريخ واسألوا ضمائركم وقلوبكم ، هبت عليكم نفحة من نفحات الإسلام وقام فيكم محمد بن عبد الله ﷺ : « وكان آخر الأمر منكم جميعاً إجابته إلى ما دعا وتأييده في ما جاء به ، فأصبح الذين كانوا بالأمس ضلاَّلاً لا يعرفون ديناً ولا يحملون علماً هداة معلمين وأئمة مرشدين ، حملوا النور والهدى والحياة إلى أقصى العالم « يدعون من ضلَّ إلى الهدى ، ويصبرون منهم على الأذى ، يحيون بكتاب الله الموتى ، ويبصِّرون بنور الله أهل العمى ، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه ، وكم من

تائهٍ ضالٍّ قد هدوه ، فما أحسن أثرهم على الناس »[١] .

وكيف كان أثرهم على الناس ؟ اسألوا في ذلك تاريخ العالم بعد القرن السادس المسيحي ، ما أعظم اختلافه عن القرن السابق ؟ وما أعمق أثره في العقائد والأخلاق والاجتماع ، وكيف قامت دولة التوحيد والإيمان ، وكيف قامت سوق الجنة ، هل قامت دولة التوحيد والإيمان هذا القيام في عصر من العصور ؟ وهل نفقت سوق الجنة هذا النَّفاق قبل محمد ﷺ ، وقبل أن يقوم العرب لنشر رسالته ؟ وهل انتشرت الهداية هذا الانتشار العظيم قبل مبعث الرسول ونهضة العرب ؟

وكيف كان غناكم أيها العرب بعد البعثة العربية والفتح الإسلامي العربي ، ألم يكن غنى تخطى القياس وتجاوز حدود الشرع والأخلاق ، وكان موضع نقد شديد من العلماء ، وإن كنتم في شك من ذلك ـ ولا أخالكم ـ فاقرؤوا قصة الترف الأموي ، واقرؤوا قصة عرس المأمون ودعوة إبراهيم بن المهدي للرشيد ، وتأملوا في انقلاب الأوضاع الاقتصادية في جزيرة العرب ، وفي مدينة الرسول ﷺ ، وعموم الغنى في العصر الأموي حتى كان الوالي يبحث عن فقير يقبل الزكاة فلا يجده ، وكيف امتدت دولة الإسلام حتى استطاع الرشيد أحد ملوكه أن يقول لسحابة وقد مرت به « أمطري حيث شئت فسيأتيني خراجك » وفي ذلك بلاغ ومقنع .

وكيف كان اتحادكم بعد الافتراق ، وحبكم بعد التباغض وإيثاركم بعد الأثرة ! اسألوا عن ذلك الأوس والخزرج ، واسألوا عن ذلك الأنصار والمهاجرين ، واقرؤوا قوله تعالى :

﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ [آل عمران : ١٠٣] .

ولم يشهد التاريخ الإنساني إخوة أمتن ولا أطهر ولا أبعد عن

---

(١) من كلام الإمام أحمد .

الأغراض ، ولا أعمق من هذه الأخوَّة ، وانظروا كيف حاربت القبائل ـ المتناحرة بالأمس ـ تحت راية المثنى بن حارثة ، وسعد بن أبي وقاص ، وخالد بن الوليد وعقبة بن نافع ، وقتيبة بن مسلم وموسى ابن نصير ، وطارق بن زياد ، ومحمد بن القاسم ، وكيف حاربت الأمم والشعوب ـ المعادية المتباعدة بالأمس ـ تحت راية صلاح الدين الأيوبي ، ألم يكن ذلك كله معجزة الإسلام وتصديق قول الرسول : « ألم آتكم أعداءً فألف الله بين قلوبكم » ألا تزال العقيدة الإسلامية والرسالة المحمدية تجمعان أمماً وشعوباً من أعظم الأمم والشعوب تباعداً في الأوطان ، واختلافاً في الحضارات ، والثقافات ، وتنوعاً في الألسنة واللغات ، هل توجد مجموعة بشرية تختلف في الألوان هذا الاختلاف ، وتتحد في العقيدة والغاية والنفسية هذا الاتحاد ؟.

ألم يكن كل ذلك عن طريق محمد ﷺ وحده ، وعن طريق دينه الذي جاء به وحده ، لا يشك في ذلك مؤرخ ولا يشك في ذلك منصف ، ولا يشك في ذلك قوميٌّ ، فحقائق التاريخ أجلُّ من أن يتناولها الشك ، أو يسوغ فيها الجدال .

ثم ماذا كان ؟ ـ اسمحوا لي ولا تؤاخذوني ـ في عصر القوميات وفي العصر الذي أصبح العرب ـ حاشا المؤمنين منهم ـ فيه يتناسون محمداً ﷺ وما جاء به من النعمة ، وأصبحوا يؤسسون حياتهم وسياستهم على الوحدة العربية ، والقومية ، والوطن العربي ألم يكن ضلال بعد هدى ، ضلال في العقيدة والعمل والأخلاق والاجتماع ، وفوضى فكرية هائلة ، وتفسخ خلقي واجتماعي لا يقل ـ في العواصم العربية الكبرى ـ عن التفسخ الخلقي والاجتماعي في الجاهلية الأولى ، وقد يفوقه بالتنظيم والانتشار ، وبأنه قد صار فناً وصناعة وتجارة .

ألم تكن أزمات ومشكلات لا تنتهي ، وفقر مدقع في بعض الطبقات وسوء توزيع ، أما أصبحت الشعوب العربية كلُّها أو جلُّها عيالًا على

الغرب ، أما أصبحت مسألة اللاجئين عقدة لا تحل ، أما أصبحت البلاد العربية مهددة بالشيوعية ؟

ثم ألم تكن فرقة بعد وحدة ، وانقسام بعد اجتماع شمل واتحاد كلمة ، وليس هنالك ما تخلف الرابطة الإسلامية وتقهر الشهوات ـ شهوة الحكم والزعامة والاستقلال بالمجد ، والأنانيات والأغراض الجنسية ـ وقد ظهر ضعف الرابطة العربية عن قهر هذه الشهوات والنزوات ، لتجردها عن عقيدة قوية ، وإيمان عميق ، وتربية صالحة ولم تستطع أن تكوِّن من هذه الدول والشعوب العربية التي لا يكثر عددها جبهة موحدة قوية ، وأن تمنع الجمهورية الجزائرية الديمقراطية ، والمملكة المغربية ـ وكلتاهما عربيتان ـ أن تتحاربا ولم تستطع أن توفق بين سورية والعراق ـ وكلاهما بلدان عربيان ـ ولم تستطع أن تجمع بين سورية ومصر زمناً طويلاً ، وتحافظ على واقع « الجمهورية العربية المتحدة » .

إن الفرد العاقل يوازن بين ربحه وخسارته ودخله وخرجه أليست لأمة ـ كالأمة العربية ـ العظيمة الحكيمة ، أن توازن بين ربحها ودخلها لما استمسكت بغرز محمد ﷺ واعتصمت بدينه وحملت رسالته ، وبين خسارتها وخروجها لما انفصلت عن ركبه وانطوت على نفسها ، وعاشت في عزلة عن العالم الإسلامي ، وأصبحت تنظر إلى القومية العربية كعوض عن القومية الإسلامية .

وكلمة أزفها إلى إخواننا العرب الذين يؤمنون بالعروبة كعقيدة ورسالة ، وينظرون إلى الأمة العربية كأمة لا تعيش إلا على مواهبها الكامنة ، ولغتها العظيمة ، وصلاحيتها للبقاء ، وموقعها الجغرافي وأهميتها السياسية ، ويعتقدون أن شخصية الأمة العربية أقدم وأضخم من الرسالات السماوية ، والعقائد الدينية ، فقد كانت هذه الأمة قبل أن تكون هذه الرسالات ، وستظل بعد هذه الرسالات وتستطيع أن تعيش بغيرها .

إننا نلتقي بهؤلاء القوميين في تقدير الأمة العربية والإعجاب بشخصيتها

القوية ، ومواهبها العظيمة وصلاحيتها للبقاء ، وإجلال لغتها العبقرية ، إنهم لا يسبقوننا في شيء من ذلك وليسوا أولى بهذه الأمة العظيمة وتقدير فضائلها ـ الصحيحة الثابتة ـ منا .

ولكننا نناشدهم بهذا الحب للعرب الذي يجمع بيننا وبينهم ونلتقي عليه ، وبالتاريخ الذي يثقون به ويحتجُّون ، هل كان للعرب أن يمثلوا هذا الدور العظيم الذي مثَّلوه في العالم ، وأن يشغلوا سمع الزمان وبصره ، وأن يغيروا مجرى التاريخ ، لولا هذه الرسالة السماوية التي تسمى الإسلام ، ولولا هذا الكتاب العظيم الذي يعرف بالقرآن ، لولا تبنيهم لهذه الدعوة الجديدة وجهادهم في سبيلها ، وهل كان لهم ـ إذا جرت الأمور مجراها الطبيعي ـ أن تفرض زعامتهم وسيادتهم على الشعوب والأمم ، ذات المدنيات الباهرة العتيقة ، والثقافات الواسعة العميقة ، وأن تنتشر لغتهم في مشارق الأرض ومغاربها فتندرس لغات كثيرة وتنسى ، وتصبح اللغة العربية من ضفاف دجلة في العراق إلى الوادي الكبير في الأندلس هي لغة العلم والدين والعبادة والسياسة ، وينبغ فيها أساتذة كبار وأئمة عظام كالجرجاني والزمخشري وأبي علي الفارسي والصغاني والزبيدي ؟ إلى أي مساحة زمنية أيها السادة وإلى أي أعداد ومقادير رياضية كان العرب يحتاجون في الوصول إلى هذه السيطرة السياسية والثقافية ، لو بقوا على وضعهم القديم ، هل كان يمكن ذلك في ألف سنة ؟! فقد مضى على الأمة العربية آلاف من السنين وهي تعيش على هامش الأمم وفي عزلة عن العالم ، أم كان لشعرها البليغ وأدبها الرفيع ، ولغتها العظيمة أن تشق طريقها إلى الأمام وتبلغ بهذه الأمة إلى ذروة المجد وأوج السيادة ، كما وصل بها الإسلام فقد كانت المعلقات وكان شيء كثير مما يحتوي عليه ديوان الحماسة قبل أن يظهر الإسلام ، ويبعث محمد عليه الصلاة والسلام ، فما أغنى عنها هذا الشعر البليغ وهذا الأدب الرفيع وهذه اللغة العظيمة ولم تخضع للعرب واللغات والأدب ، بل لم يسترع هذا الشعر والأدب واللغة انتباه العالم المتمدن ، ولم تتوفر الهمم

والدواعي على جمعها وتدوينها ونشرها وشرحها إلا بعد ظهور الإسلام ، وبعد ما أصبح العرب ـ بفضل الإسلام ـ أساتذة العالم وأصبحت لغتهم وآدابهم ثروة إسلامية يجب على جميع من يدين بالإسلام دراستها والتوسع فيها وحفظها .

هذه كلها حقائق تاريخية بل هو التاريخ نفسه ولا أصدِّق أيها السادة الفضلاء أنكم تجحدون التاريخ وتكابرون الواقع ، إلا أن لكم أن تقولوا إنما انتشرت اللغة العربية وآدابها بتأثير السيادة العربية العالمية ، وبفضل الحكومات العربية التي قامت في أنحاء العالم كما انتشرت اللغة الإنجليزية بتأثير الإمبراطورية البريطانية ، واللغة الفرنسية بتأثير الإمبراطورية الفرنسية ، وستنتشر هذه اللغة الكريمة مرة ثانية إذا قامت الإمبراطورية العربية ، فليس الإسلام مرد هذا الفضل إنما هي القوة السياسية والسيطرة العالمية .

إنني لا أريد أن أطيل عليكم أيها السادة وأسائلكم كيف قامت الإمبراطورية العربية وكيف انبثت سيطرة العرب ؟ ألم تقم بفضل الإسلام ، فكل ذلك معروف عندكم ، ولكني أقول لكم إن قضية اللغة العربية وانتشارها وتحكمها في العالم تختلف عن قضية اللغة الإنجليزية واللغة الفرنسية كل الاختلاف ، فاللغات الأوربية إنما تبعت الحكومات الأوروبية ورافقتها في تقدمها ومغامراتها ، وعاشت عيالاً عليها ، وكلما نالت أمة استقلالها وتحررت من نير الحكومة الأجنبية ثارت على هذه اللغة ، وحاولت أن تتخلص منها في أقرب فرصة ، لأنها تعتبرها لغة أجنبية طارئة ، وتعتبرها رمز الاستعمار البغيض ، والاحتلال المقيت ، وهذا شأن الهند التي أتقنت اللغة الإنجليزية كأهلها ، وكان فيها أدباء وكتاب وشعراء ودستوريون كبار ، صممت على التخلص منها في مدة قريبة ، وسيكون هذا شأن الجزائر بعد التحرر ، لأن هذه الأقطار لا تربطها بهذه اللغات الأوروبية عقيدة دينية أو عاطفة روحية ، إنما هي لغات فرضها عليها الاستعمار

فرضاً ، فجدير بها أن تتبع الاستعمار في رحيله حتى يتم الجلاء ويتم استقلال البلاد سياسياً وثقافياً .

أما اللغة العربية فقد استمرت في الانتشار والازدهار بعد ضعف الحكومة العربية واضمحلالها ، وظلت تنتشر وتزدهر بعد انتقال القوة السياسية إلى الفرس والعجم ، وظلت تسيطر على أكبر رقعة من العالم الإسلامي وعلى أعظم مجموعة من العقول البشرية ، رغم ضعف العرب ، فكانت لغة التأليف ، ولغة الحكمة والفلسفة ولغة البحث العلمي ، ولغة الفقه والكلام ، ولغة التاريخ والأدب ، ولغة التفسير والحديث في إيران وتركستان والهند ، ولا تزال لها مراكز ثقافية كبيرة في الهند وباكستان ، ويبلغ عدد من يحسنها قراءة وفهماً في هذه البلاد الأعجمية مئات الألوف ولا يزال من يتعصب لها ، وإذا خير بين لغته الوطنية التي نشأ عليها وبين اللغة العربية التي نزل بها القرآن آثر اللغة العربية على لغة بلاده ، وحرص على تعليمها لأولاده ، ولا سبب لذلك إلا أنها لغة العقيدة والشريعة ولغة الإسلام « الرسمية » وقد كان الشيخ علي المتقي من رجال القرن العاشر يؤلف في هذه اللغة ، وليست على وجه الأرض حكومة عربية صميمة تكافئه على هذا البر باللغة العربية ، وقد كان تلميذه محمد طاهر الفتني (م٩٨٦هـ) يؤلف كتابه البديع « مجمع بحار الأنوار » في شرح غريب الحديث في اللغة العربية ـ وهو في الهند ـ بعيداً عن مركز هذه اللغة ، وقد ألف الشيخ محمد علي التهانوي كتابه الفريد « كشاف اصطلاحات الفنون » في القرن الثاني عشر ، والشيخ أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي كتابه العظيم « حجة الله البالغة » في القرن الثاني عشر ، وكلاهما آثرا اللغة العربية لأثرهما العلمي الكبير ، لأنها في عقيدتهما لغة الإسلام ولغة العلوم الإسلامية ، ولغة المؤلفين الإسلاميين الحبيبة الأثيرة .

وقد أفاض الإسلام على اللغة العربية قدسية ليست لغيرها من اللغات وغرس حبها في نفوس المسلمين وفي سويداء قلوبهم ، حتى أصبحوا

يؤثرونها على لغة آبائهم وبلادهم ، وأخفقت الحكومات الجبارة في اقتلاع هذا الحب من نفوس شعوبها المسلمة وقطع صلتها عنها وقد منعت الحكومة التركية الأذان باللغة العربية قانونياً وبقي الأتراك المسلمون يحنون إلى كلمات الأذان العربية أكثر من ربع قرن حتى إذا سمح لهم بذلك في العهد الأخير ، ودوى الأذان العربي أول مرة على منائر تركيا ، سجد الأتراك على الشوارع شكراً وفرحاً ، وذبحت ألوف من النعاج والغنم .

فهل للغة من لغات العالم هذه المنزلة في النفوس وهذه المحبة في القلوب ؟ وهل كان للعرب هذا النفوذ العقلي والثقافي في العالم وهل كان لعلومهم وآدابهم هذا النَّفاق العجيب ، والرواج العظيم وهذه السيطرة على العقول والقرائح والأقلام لولا الإسلام ولولا البعثة المحمدية على صاحبها الصلاة والسلام ؟!

ونرجع إلى الحاضر أيها السادة ونقارن بين مستقبل الأمة العربية وقد احتضنت الرسالة المحمدية كما احتضنتها في السابق وأدمجت شخصيتها فيها ، وقامت تدعو إليها وتكافح في سبيلها ، وبين مستقبل هذه الأمة وقد تجرَّدت عن هذه الرسالة وتخلت عنها وانطوت على نفسها ، واقتصرت على القومية العربية ، ودعت إلى حضارتها الأولى وآدابها العربية التي سبقت الإسلام .

خذوا أيها السادة أكبر ورقة بيضاء تجدونها ، وخذوا قلماً لا ينقطع مداده ، وارسموا قمة المجد التي تستطيع الأمة العربية ، المتجرِّدة عن الرسالة الإسلامية والريادة المحمدية ، أن تصل إليها ، ارسموا هذه القمة بكل سخاء وشجاعة وارفعوها في إطار الواقع والإمكان العملي ما استطعتم ، هل تزيد هذه الأمة على أن تكون كالشعب الهندي أو الشعب الياباني في الشرق أو الشعب الفرنسي أو الشعب الإنجليزي في الغرب ، إنه أقصى ما يصل إليه شعب في حدود القومية ، ولا أريد أن أثير الآن مسألة العدل والظلم والحق والباطل ، وهل يجوز لشعب أن يستعبد شعباً آخر وأن

يحتل بلاداً أخرى ، ولكن هذا مدى القومية وهذه آفاقها وهذه أقصى حدودها .

أين هذه القمة ـ مهما عظمت وتعالت ـ من منصب الثقة العالمية التي كانت تتمتع بها هذه الأمة ، وهي أمة الرسالة وهي أمة الإخلاص والتجرد ، وأين هي من منصب الهداية والأمانة الذي كانت تتمتع به وهي أمة العقيدة والإيمان . إن نتيجة الوضع الأول ـ الوضع القومي ـ الأحقاد والضغائن والثورات والحروب والصراع الذي لا يكاد ينتهي ، ونتيجة الوضع الآخر ـ الوضع الديني ـ الألفة والمحبة ، والتقدير والاعتراف ، والهدوء والسلام إن الرسالة المحمدية ، قد بلغت بالعرب إلى قمة المجد الحقيقي والسيادة الحقيقية ، حيث خضعت لهم القلوب والرقاب ، ودانت لهم العباد والبلاد ، وامتلأت لهم القلوب حباً وحناناً ، ونصيحة وإخلاصاً ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٦٣] .

ولم يعرف التاريخ فاتحاً أحبه المفتوحون غير العرب وقد اعتبروهم مرشدين ومنقذين ومحررين ، لأن الرسالة التي كانوا يحملونها هي رسالة فيها الإرشاد ، وفيها الإنقاذ ، وفيها التحرير وفيها الرحمة ، وفيها الحياة ، وفيها العقل ، وفيها الإنسانية ، وهذه الرسالة كفيلة بأن تبلغ بالعرب اليوم إلى هذه القمة ، وأن تبوئهم مبوأ صدق ، وأن تمكنهم في الأرض وتجعلهم أئمة وتجعلهم الوارثين .

إن الأمم أيها السادة القوميون لا تعيش بالحضارات ولا تعيش باللغات ، وإذا عاشت كانت حياتها قصيرة ، ومصطنعة وسطحية . إن الأمم تعيش بالرسالات ، وقد سمعتكم كثيراً تقولون : « إن العرب أمة واحدة ذات رسالة خالدة » فما هي هذه الرسالة ؟ إذا كانت الرسالة المحمدية ـ وهي أقرب الرسالات إلى الطبيعة العربية والأمة العربية ـ فلا مناقشة ، وإذا كانت غيرها فما هي أيها الأسياد ؟ وهل هناك رسالة خالدة غير الإسلام ؟

وهل هناك دعوة أو توجيه عالمي يغيث الإنسانية المحتضرة ، والمدنية الغربية المنهارة ويمد الغرب بالإيمان واليقين والثقة والقوة الروحية والإنسانية السامية ، غير الإسلام الذي لا سبب فيه إلَّا أنه أتاكم عفواً من غير تعب وتضحية ، وانتقل إليكم من آبائكم في التراث ، وعاش فيكم طويلاً من غير أن تدرسوه وتفقهوه .

لقد كان جديراً بكم أيها السادة القوميون أن تقتبسوا هذه الرسالة ولو كانت في أقصى العالم وعند أبعد الأمم ، وتتحفوا الأمة العربية بها لتعيش بها كريمة قوية ، وتتزعم بها العالم ، وبذلك تثبتون إخلاصكم وودكم ووفاءكم لهذه الأمة ، وتكونون قوميين صادقين ، فكيف وقد أشرقت هذه الرسالة من أفقكم وظهرت في لغتكم وتمثلت في أمتكم ووصلت إلى أقصى حدود العالم عن طريقكم .

إن أعظم مجرم قومي في حق العرب وأضر على هذه الأمة من هولاكو وجنكيز خان من يضعف صلتها بهذا الدين ومن ينضب في نفوسها معين الإيمان واليقين ومن يحول بينها وبين محمد ﷺ ، إن من يرتكب هذه الجريمة هو الذي يمهد الطريق لضياع هذه الأمة الكريمة وانهيارها وإفلاسها ، ويتآمر على وجودها وقوتها ويحولها من أمة مؤمنة منظمة قوية ذات عقيدة ، وهدف ورسالة ، وقائد عام محبب ، إلى أمة متشككة ضعيفة لا عقيدة لها ولا هدف ولا رسالة ولا قائد ، تجتمع القلوب على حبه وتجتمع الشعوب حول رايته ، إن هذا الخواء الذي تحدثه هذه الثورة المشؤومة لا يملؤه تنظيم قومي أو حلف عربي ، إن الإيمان لا عوض له في حياة الأمم والأفراد ، وإن الأنبياء لا يخلفون بالزعماء السياسيين ، وإن الوعي القومي أو السياسي مهما تم وقوي لا يمنح الأمة العقيدة القويمة والدوافع النفسية العميقة إلى عمل الخير ، والأخلاق المستقيمة ، ولو أغنى هذا الوعي عن أمة لأغنى عن الشعوب الأوروبية ، وما كانت فريسة التفسخ الخلقي والفوضى العقلية ولما تعرضت للنهاية الأليمة القريبة .

إن لك أمماً هنا في الشرق بدأت تشعر بهذا الخواء الروحي ، والإفلاس في الإيمان والعقيدة ، وفقدان قائد ديني روحي يجمع بين الشعوب والطبقات ، ويذيب اختلاف اللغات والثقافات ، ويغلب على العصبيات المحلية أو الحزبية ، والحزازات السياسية فقامت تبحث في تاريخها عن نبي أو قائد روحي تجعله إماماً وقائداً وتدعو باسمه ، وقد أحيت الأمة الهندية حديثاً ذكرى « بوذا » ذلك الذي اضطهدت ديانته ونفتها من الهند في العهد القديم ، واحتفلت به الهند حكومة وشعباً ، وقد نشط في ذلك كبار الملاحدة والزعماء السياسيين الذين لا يدينون بدين ولا يؤمنون بعقيدة وذلك كله حرصاً على جمع شمل هذه الأمة العظيمة التي تتوزعها شعوب وطبقات وعصبيات ، وعلى إعادة الحياة والروح إليها .

فمن المؤسف المحزن المخجل أن يقوم في هذا الوقت في العالم العربي رجال يدعون إلى القومية العربية المجرَّدة من العقيدة والرسالة ، وإلى قطع الصلة عن أعظم نبي عرفه تاريخ الأديان ، وعن أقوى شخصية ظهرت في العالم ، وعن أمتن رابطة روحية تجمع بين الأمم والأفراد ، والأشتات والأضداد ، إنها جريمة قومية تبذُّ جميع الجرائم القومية التي سجلها تاريخ هذه الأمة ، وإنها حركة هدم وتخريب تفوق جميع الحركات الهدَّامة المعروفة في التاريخ ، وإنها خطوة حاسمة مشؤومة في سبيل الدمار القومي ، و « الانتحار » الاجتماعي .

إنني أعتقد أن في القوميين رجالًا مخلصين جادين ، لم يدفعهم إلى هذا التفكير الخاطىء إلَّا الحب الزائد للعرب ، والحرص على مجدهم وعزهم ، والنزعة القومية التي طغت بتأثير الغرب على جميع الشعوب ، وأنهم لم يتعمَّقوا في هذه المسألة تعمق الخبير المفكر ، ولم يختبروا نتائج الحركة القومية المجردة عن الإسلام الواسعة ، وما تجنيه على العرب أنفسهم من ويلات وخسارات وتحولات عظيمة ، وأنهم لا يزنون شيئاً إلَّا

في ميزان النفع للعرب وأنهم إذا قيل لهم اتقوا الله في العرب لم تأخذهم العزة بالإثم .

إلى أولئك المجرَّدين عن حمية الجاهلية الباحثين عن الحق التابعين للحقيقة أهدي هذه الكلمة المخلصة[١] .

•••

(١) نشر هذا المقال في مجلة « البعث الإسلامي » الصادرة من ندوة العلماء لكهنؤ الهند ، ثم نشر كرسالة مستقلة من « المجمع الإسلامي العلمي » بلكهنؤ (الهند) .

فهرس الموضوعات

* * *